مسلك أهل الفطن
من معاني قصيدة
ما لذة العيش لأبي مدين

مسلك أهل الفِطَن مِن معاني قصيدة

ما لذّة العيش لأبي مدين

تأليف / عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

اعتنى بخدمته

مكتب النور بتريم

مراجعة وتصحيح

- زيد بن عبدالرحمن بن يحيى
- فهمي علي بن عبيدون
- حسين عوض با خميس

تصميم فنّي وإخراج

عمر محمد باحماله

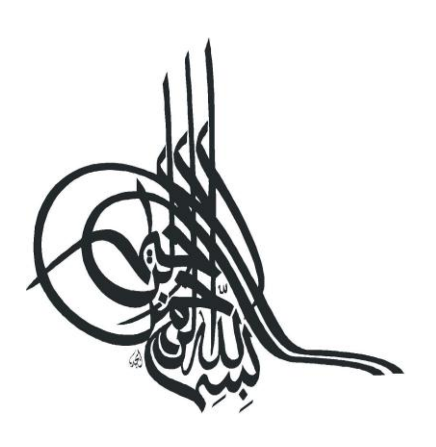
مراد رمضان صبيح

مسلك أهل الفطن
من معاني قصيدة
ما لذة العيش لأبي مدين

للعلامة المربّي الحبيب

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ ابن الشيخ أبي بكر بن سالم

إصدارات دار المصطفى


بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة مختصرة عن صاحب الكتاب

الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

هو الداعي الإسلامي العلامة عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ العلوي الحسيني ولد بمدينة تريم بحضرموت ـ الجمهورية اليمنية ـ يوم الاثنين الرابع من شهر محرم لعام ١٣٨٣ هـ ـ الموافق ٢٧ من شهر مايو ١٩٦٣ م ـ ونشأ بها وحفظ القران العظيم ، وتربى تربية صالحة في أحضان والده في بيئة العلم والإيمان والأخلاق الفاضلة :

أخذ علوم الشريعة المطهرة على أيدي من أدركهم من علماء حضرموت ومن أجلهم والده مفتي تريم .

ابتدأ التدريس وعمل في الدعوة إلى الله وهو في الخامسة عشر ـ من العمر مع مواصلة التعلم والأخذ والتلقي .

ثم لما اشتد الوضع بسبب الحكم الشمولي الشيوعي في ذلك الوقت انتقل إلى مدينة البيضاء باليمن في أوائل شهر صفر عام ١٤٠٢ هـ ـ الموافق شهر ديسمبر ١٩٨١ م وأقام في رباط الهدار بالبيضاء . وكان حريصا على عقد الدروس والمجامع العلمية ، كثير الخروج للدعوة إلى الله في مختلف مناطق البيضاء والحديدة وتعز ..

تردد على الحرمين الشريفين بدءا من شهر رجب عام ١٤٠٢ هـ ـ الموافق شهر إبريل ١٩٨٢ م ـ وأخذ عن علمائها ..

في عام ١٤١٣هـ الموافق ١٩٩٢م انتقل إلى مدينة الشحر بمحافظة حضرموت حيث واصل إقامة الدروس في رباط الشحر للدراسات الإسلامية ، وأقام قبلها مدة سنة ونصف تقريبا في سلطنة عمان.

ثم انتقل منها إلى مدينة تريم حيث استقر به المقام فيها واستقبل أعداد الطلاب القادمين عليه من أنحاء مختلفة من العالم . وابتدأ تأسيس دار المصطفى للدراسات الإسلامية عام (١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٤م) على ثلاثة مقاصد:

- أخذ علوم الشريعة وما اتصل بها بالتلقي عن أهلها بأسانيدهم.
- تزكية النفس وتهذيب الأخلاق.
- نشر العلم النافع والدعوة إلى الله عز وجل .

له العديد من الرحلات في الدعوة إلى الله ونشر العلم الشرعي إلى مختلف الأقطار كالشام ومصر والسودان والهند وباكستان واندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وبروناي وسيريلانكا وكينيا وتنزانيا وجزر القمر ودول الخليج العربي واتصل بأسانيد كثير من العلماء في تلك الأقطار كما شارك في حضور عدد من المؤتمرات الإسلامية .

مؤلفاته :

١. إسعاف طالبي رضا الخلاق ببيان مكارم الأخلاق.

٢. توجيهات الطلاب

٣. شرح منظومة السند العلوي.

٤. خُلُقَنَا .

٥. الذخيرة المشرفة. وقد ترجم بعدة لغات.

٦. خلاصة المدد النبوي في الأذكار .

٧. الضياء اللامع بذكر مولد النبي الشافع.

٨. الشراب الطهور في ذكر سيرة بدر البدور

٩. فيض الإمداد في خطب الجمعة والكسوفين والاستسقاء والأعياد .

١٠. المختار من شفاء السقيم

١١. ثقافة الخطيب.

١٢. نور الإيمان من كلام حبيب الرحمن

١٣. ديوان شعر (فائضات المن من رحمات وهاب المنن)

١٤. سلسلة معالم الدعاة في طريق حبيب الله

١٥. الوصية للعاملين في صفوف الدعوة المحمدية



قصيدة الشيخ شعيب أبي مدين

مَـا لَـذَّةُ العَـيشِ إِلَّا صُـحْبَةُ الفُقَـرَا ... هُمُ السَّلَاطِيْنُ وَالسَّادَاتُ وَالأُمَـرَا

فَاصْـحَبْهُمُ وَتَـأَدَّبْ فِي مَجَالِسِـهِمْ ... وَخَـلِّ حَظَّـكَ مَهْـمَا قَـدَّمُوكَ وَرَا

وَاسْتَغْنِمِ الوَقْـتَ وَاحْضرْ دَائِماً مَعَهُـمْ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضَا يَخْتَصُّ مَنْ حَضَرَا

وَلَازِمِ الصَّـمْتَ إِلَّا إِنْ سُـئِلْتَ فَقُـلْ ... لَا عِلْمَ عِنْدِيْ وَكُنْ بِالجَهْلِ مُسْتَتِرَا

وَلَا تَـرَ العَيْـبَ إلا فِيْـكَ مُعْتَقِـداً ... عَيْبَـاً بَـدَا بَيِّنَـاً لَكِنَّـهُ اسْـتَتَرَا

وَحُـطَّ رَأْسَـكَ وَاسْـتَغْفِرْ بِـلا سَـبَبٍ ... وَقُـمْ عَـلَى قَـدَمِ الإِنْصَـافِ مُعْتَـذِرَا

وَإِنْ بَـدَا مِنْـكَ عَيْـبٌ فَاعْتَـذِرْ وَأَقِـمْ ... وَجْهَ اعْتِذَارِكَ عَمَّا فِيْكَ مِنْكَ جَرَى

وَقُـلْ عُبَيْـدُكُمُ أَوْلَى بِصَـفْحِكُمُ ... فَسَـامِحُوا وَخُـذُوا بِـالرِّفْقِ يَـا فُقَـرَا

هُـمْ بِالتَّفَضُّـلِ أَوْلَى وَهْـوَ شِـيْمَتُهُمْ ... فَـلَا تَخَـفْ دَرَكَـاً مِـنْهُمْ وَلَا ضَـرَرَا

وَبِـالتَّفَتِّيْ[1] عَـلَى الإِخْـوَانِ جُـدْ أَبَـدَاً ... حِسَّاً وَمَعْنًى وَغُضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَثَرَا

وَرَاقِـبِ الشَّـيْخَ فِي أَحْوَالِـهِ فَعَسَـى ... يَـرَى عَلَيْـكَ مِـنِ اسْتِحْسَـانِهِ أَثَـرَا

وَقَـدِّمِ الجِـدَّ وَانْهَـضْ عِنْـدَ خِدْمَتِـهِ ... عَسَاهُ يَرْضَى وَحَاذِرْ أَنْ تُـرى ضَجِرَا

فَفِـيْ رِضَـاهُ رِضَـا البَـارِيْ وَطَاعَتِـهِ ... يَرْضَى عَلَيْكَ فَكُنْ مِنْ تَرْكِهِ حَذِرَا

وَاعْلَـمْ بِـأَنَّ طَرِيْـقَ القَـوْمِ دَارِسَـةٌ ... وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيْهَا اليَوْمَ كَيْفَ تَـرَى

مَتَـى أَرَاهُـمْ وَأَنَّـى لِي بِـرُؤْيَتِهِمْ ... أَوْ تَسْـمَعُ الأُذْنُ مِنِّـيْ عَـنْهُمُ خَـبَرَا

---

(١) وفي نسخة: وبالتغني من الإغناء.

مَنْ لِي وَأَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ	عَلَى مَوَارِدَ لَمْ أَلْفِ بِهَا كَدَرَا
أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيْهِمْ وَأُوْثِرُهُمْ	بِمُهْجَتِي وَخُصُوْصَاً مِنْهُمُ نَفَرَا
قَوْمٌ كِرَامُ السَّجَايَا حَيْثُمَا جَلَسُوا	يَبْقَى الزَّمَانُ عَلَى آثَارِهِمْ عَطِرَا
يُهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ طَرَفَاً	حُسْنُ التَآلُفُ مِنْهُمْ رَاقَنِي نَظَرَا
هُمْ أَهْلُ وَدِّيْ وَأَحْبَابِي الذِّيْنَ هُمُو	مِمَّنْ يَجُرُّ ذُيُوْلَ العِزِّ مُفْتَخِرَا
لا زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللهِ مُجْتَمِعَاً	وَذَنْبُنَا فِيْهِ مَغْفُوراً وَمُغْتَفَرَا
ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا	مُحَمَّدٍ خَيْرِ مَنْ وَافَى وَمَنْ نَذَرَا

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله على إفضالِه ، وجزيلِ نوالِه ، وتيسيرِهِ الأسباب ، وفتحه الأبواب ، ودفعه الأوصاب ، ونسأله سبحانه وتعالى أن يدخلنا وإياكم في دوائر من إليه أناب ، وأن يربطنا بالأحباب ، و يثبتنا على منهج الهدى والصواب ، ويرفعنا أعلى مراتب الاقتراب ، إنه الكريم الوهاب.

حشا الشيخ ابن عطاء الله خطبة شرحه للمنظومة[1] ونوَّرها بأنوار أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته ، وهي أجلُّ وأنورُ ما حوته أذهانُنا وعقولُنا ومداركُنا وأفكارُنا ومعارفُنا بل هي أسماءُ الحق الذي كل ما لم يخضع له ويندرج فيه فباطل.

١- المسمَّى (التوفيق في آداب الطريق) وهذا نص الخطبة (الحمد لله المنفرد بالخلق والتدبير ، الواحد في الحكم والتقدير ، الملك الذي ليس له في مُلكه وزير ، المالك الذي لا يخرج عن مُلكه صغير ولا كبير ، المتقدس في كمال وصفه عن الشبيه والنظير ، المنزَّه في كمال ذاته عن التمثيل والتصوير ، العليم الذي لا يخفى عليه ما في الضمير ، {أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ} العَالِمِ الذي أحاط عِلمه بمَبادِئ الأمور ونهاياتها ، السميع الذي فضل في سمعه بين ظاهر الأصوات وخفاياها ، الرازق وهو المُنعم على الخليقة بإيصال أقواتها ، القيوم المتكفل بها في جميع حالاتها ، الوهاب وهو الذي منَّ على النفوس بوجود حياتها ، القدير وهو المعيد لها بعد وفاتها ، الحسيب وهو المُجازي لها يوم قدومها عليه بحسناتها وسيئاتها ، فسبحانه من إله مَنَّ على العباد بالجُودِ قبل الوُجود ، وقام بهم بأرزاقهم على كلتا حالاتهم من إقرار وجحود ، ومَدَّ كل موجودٍ بوجودِ عطائِهِ ، وحفظ وجود العالم بإمداد بقائه ، وظهر بحكمته في أرضه وقدره في سمائه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة عبدٍ مفوِّضٍ لقضائه ومسلِّمٍ له في حُكمِهِ وإمضائِهِ ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المفَضَّل على جميع أنبيائه ، المخصوص بجزيل فضله وعطائه ، الفاتح الخاتم وليس ذلك لسواه ، الشافع لكل العباد حين يجمعهم الحق لِفصلِ قضائه . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المستمسكون بولائه ، وسلم تسليما كثيراً.

معرفة الأسماء والصفات مفتاح معرفة الذات :

نحن في حاجة إلى إدراك صفات ربنا تعالى وأسمائه ، ومعرفة ذلك بما تقوى عليه العقولُ البشريةُ التي أمدّ اللهُ بها المكلفين ، والذي تقوى عليه العقولُ وتقدرُ عليه المداركُ أمرٌ كبيرٌ وعظيمٌ ، وهو بالنسبة لحقيقةِ صفات الحق ليس بشيء ، لكنْ خلوُّ الذهنِ والباطنِ من استشعار واستحضار أسماء الله وصفاته هو بليةُ الانقطاعِ ، وشرُّ الحجابِ وسوءُ البعدِ ومصيبةُ الغفلةِ .

فلا عمارة للقلوب إلا بحضور معاني أسماء الله وصفاته فيها ، وكلما قَوِيَ ذلك ودام ثَبتَ قدم العبد واستقام ، وقابله مِن الطّول والإنعام ما لا يحصره كلام ولا تنتهي إليه الأوهام.

قد ذاقها مَن عَناها ** وهام فيها الذي هام [1]

نسأل الله أن يعمر بواطننا باستحضار صفاته وأسمائه التي هي مفتاح المعرفة بذاته.

١ – البيت من قصيدة للإمام أبي بكر العيدروس العدني مطلعها :

نُصِبتْ لأهل المناجاة في حندس الليل أعلام ... واستعذبوا السهد وأمسوا قيام إذ نام من نام

شرح الأبيات

(١) مَـــا لَـــذَّةُ العَـــيشِ إِلا صُـــحْبَةُ الفُقَـــرَا
هُـــمُ السَّـــلاطِيْنُ وَالسَّـــادَاتُ وَالأُمَـــرَا

❁ صحبة المربّي وأثرها على المتلقِّي

(مَا لَذَّةُ العَيشِ إِلا صُحْبَةُ الفُقَرَا) : ما لذة العيش: أي ما يقوم به عيش الإنسان ، أو ما يعيشُ به الإنسان؛ ما لذته على وجه الحقيقة إلا صحبة رجال حضرة الرحمن ، و مصاحبة ومجالسة أهل التحقق بالافتقار إلى الله.

❁ معنى الفقر ودلالته عند رجال التربية :

فإن كان يُفَسَّرُ الفقر بخلو اليد عما يَحتاجُ إليه الإنسان فهؤلاء لو مُلِّكوا شرق الأرض وغربها لم يشهدوا لأيديهم مُلكاً مع الرحمن قط.

فهم في كل نَفَسٍ مُفتَقِرون إلى الله، ولذا لا تعويلَ لهم على غيره ، ولا ركونَ منهم إلا إليه ، ولا اعتمادَ عندهم إلا عليه تبارك وتعالى .. يشهدون حاجتهم إليه ، ويشهدون مسكنتهم وذِلَّتهم لعظمته . وفي دعائه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم (اللهم احيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين)[١] فمن ظنَّ أنَّ معنى المسكنة مُجَرَّدُ قِلَّةِ ذاتِ اليد في الحسِّ فقد أَبْعَدَ ، ومَن ذاق مِنْ لَذَّةِ صُحبةِ هؤلاء ومجالستهم ضاقت به الدنيا لو فارقهم ساعة.

١- أخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخدري، باب مجالسة الفقراء، (٢/ ١٣٨١) برقم ٤١٢٦ ، الناشر : دار إحياء الكتب العربية .

تضـــــيقُ بِنَـــــا الـــــدنيا إذا غبـــــتمُ عنّــــا
وتزهـــــقُ بـــــالأرواح أجســـــامُنا مِنَّــــــا[1]

وكيــف يعــيش مَــن يفــارقهم الأيــامَ والليــاليَ والأســابيعَ والأشــهرَ والسنوات؟ لو لم يكن ميِّتَ القلبِ لما طاق ذلك ، ولكن كما قالوا تعبيراً عـمّا في عالم الحس: ليس لجرح بميِّتٍ إيلامُ ، فما دام ميتاً لا يتألمُ بالجروحِ في عـالم الحس .. و ميِّت القلب لا يتألم بهذا البعد وبهذا الحجاب.

❁ **ذوقُ معنى الصحبة لرسول ﷺ عند الصحابة :**

ومن هذا المعنى نعلم ما كان عند الصحابة من محبةٍ وشوقٍ تجاه رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يكون أحدهم في وقت راحته وجلوسـه مـع أسرته فيهيجُ في قلبِهِ ذِكرُ الحبيبِ صلى الله عليه وآله وسلم فيقوم ويترك بيته و أهله وطعامه ويـذهب ليترقَّـب؛ هـل يبـدو لـه الحبيـب؟ أو هـل يسـمع صوته؟ أو هل يلوح له من الحِجْر أو في المسجد أو على الشارع؟ ولا يَقِرُّ لـه قرارٌ حتى يكحل عينه بوجه نور الأنوار ، ومنه سرى الفكـر عِنـدهم كيـف نفارقه في عالم البقاء حتى ولو دخلنا الجنـة .. ومِـن هنـا جـاءت الآيـة لهـم تبشِّـرهم بمرافقته لا مفارقته ، وهكذا يكون الحال عند كل مـن ذاق معنـى الصحبة وعرف أهل الافتقار إلى الله .

---

١ – ديوان الشيخ شعيب أبي مدين ـ جمعه : العربي بن مصطفى الشوار التلمساني ـ تقديم د/ عيسى بن عبدالله بن مانع الحميري (ص ٨٣).

❁ الصحبة وأثرها على المصاحب :

والصحبة مع الخَلقِ مفتاحٌ لما وراءها، فأمّا صحبة الغافلين والعامة من المشتغلين بما لا يَعْنِي ولا يُغْنِي فهي أساسُ الفساد وأصل الخروج عن سبيل الرشاد ، وأمّا صحبة أهل الذِّكرِ والإنابة والقلوب الحاضرةِ مع الله وخصوصاً منهم مَن فَرَغَ من تهذيب نفسه وتهيَّأ لتهذيب غيره فصُحْبتهم غُنمٌ ومِنّةٌ ومفتاحٌ .. تعلِّمُك الصحبةَ للملائكة الكرام الذين يكتبون ما يصدرُ منك مِن الأقوال والأفعال ، و يتعاقبون عليك بالليل والنهار، فلا تستطيع أن تحسن صحبة هؤلاء الملائكة إلا بمجالسة هؤلاء الأكياس من الناس إن صحبتهم بالروح وهو : الأدب ، وصُحْبَتُكَ لهم بالروح هي التي تُهَيِّئُك لصحبة الملائكة .. تُهَيِّئُك لصحبة المصطفى بمجالسة سُنَنِه والتخلق بأخلاقه وكثرة الصلاة والسلام عليه ، وولعِ القلب به ، والتحقق بمحبته ومحبة أهل بيته وصحابته، وإذا صحّت لك تلك الصحبة تهيأتَ لإحسان صحبة الله الذي هو أقرب إليك وأعلم بك ، وأمرُك كله عائدٌ إليه ومبتدأٌ منه جل جلاله. فتحسن صحبته بتحقيق حقائق التوحيد والقيام بالتفريد ، وحسن الحمد والشكر ، ودوام الحضور في حضرته ، والمسارعة إلى مرضاته .. وما أعظم وأعلى تلك الصحبة .

ولكن لا يمكننا الوصول إلى إقامة حقّها والدخول في حضرتها حتى نحسن مصاحبة الحاضرين فيها ، الذين هم محل نظر هذا الرب جل جلاله وتعالى في علاه ، فبِحَسَبِ صُحْبتِهم والأدب معهم ينقدحُ في الباطن أنوارُ أسرارِ حسنِ مصاحبة الرب جل جلاله ، بما يُفِيضُ من فضله من نَظَرِهِ إليهم إلى نظره إلى جليسهم . وهذا هو الذي يُهَيِّئُك للدخول في الدائرة ،

وتصبح من أهل القلوب الحاضرة، ولاشك أنَّهُ بهذه الصحبة تُذَاقُ لذائذُ للروح لا دخل لِلذَائذِ الأجسام بها فهي مرتع البهائم ومَن شابههم من بني آدم ، لكن لذة الروح هذه العظيمة ، التي توجد بمصاحبة أهل المراتب الفخيمة ، مِنْ أهل الافتقار الصادق إلى الله ، وبافتقارهم أغناهم عمّا سواه فكانوا هم السلاطين الذين مَلَكوا أعضاءهم السبعة فلم يصرفوها إلا في طاعة الله ، وقهروا إبليس وجنده ، فبذلك سادوا بأنوار العلم والمعرفة الخاصة ، وكانوا هم الأمراء إذ قاموا مقام الخلافة عن رب الورى عز وجل.

❁ حقيقة سلاطين الحضرة الربانية:

(هُمُ السَّلاطِيْنُ وَالسَّادَاتُ وَالأُمَرَا) فهؤلاء هم السلاطين ، وليس لجميع السلاطين الذين لم يبلغوا حالهم هذا حقيقةُ سلطنةٍ ، فإن أولئك السلاطين تَسَلطنوا على ظواهر رقاب الخلق والبلاد ، ولكن هؤلاء سُلِّطُوا على جميع القواطع عن الرب ، وعلى جميع جيش إبليس وجندِه والدنيا والهوى والشهواتِ والنفسِ ، فهؤلاء هم السلاطين ، و هذه هي السلطنة ، وهم بسلطنتهم هذه يدوم لهم العز أبدا سرمدا ، وبالموت تبدو وتظهر وتبرز حقائق هذا العز.

❁ الصنف الآخر من السلاطين:

وغير هؤلاء من السلاطين الذين حُرِموا هذا الخير وإن تسلطنوا على الناس في الشرق أو في الغرب فبالموت تبدو مظاهر الذل والهوان والندامة والخسران والفشل وسوء العاقبة. فأين السلطنةُ إذاً؟ ومَن السلاطينُ إذاً؟

السلاطين حقيقة ليس للشيطان عليهم سلطان:

فالسلاطين حقيقةً هم السادات ، ومَن لم يبلغْ شأوَهُم ويحصِّلْ منزلتهم إن ساد في عالِم الناس فقد ساد أولئك في الملأ الأعلى ، ولدى الرب الملك العظيم جل جلاله ، سادوا فهم السادات ، وإن تأمَّر هؤلاء على ظاهر الرقاب فإن أهل الله قد تأمَّرُوا على نفوسهم وعلى الشياطين العاتية الطاغية فليس للشيطان عليهم سلطان ، فمن أحق بأن يكون أميرا؟ من كان مقهورا تحت وطأة شهواته وهواه ونفسه وتسييرات الخلق له مترجيا صوت هذا .. وتأييد هذا .. ورأي هذا .. واستمالة قلبِ هذا .. ولا يقوم حاله إلا بهذا .. فهذا يُفتَرَض أن يسمى مسكيناً ، ولكن غرَّتهم الصورة .. وقد قال أهل هذا الملك العظيم (لو يعلم الملوك ما نحن فيه بالليل لجالدونا عليه بالسيوف[١]) ، فهل لنا من رغبة في هذا الملك؟ فإنهم هم السلاطين والسادات والأمراء ..

١- نسبها كثيرون لسيدنا إبراهيم بن أدهم. منهم ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٣٣٥) دار الحديث القاهرة.

(٢) فَاصْحَبْهُمُ وَتَأَدَّبْ في مَجَالِسِهِمْ
وَخَلِّ حَظَّكَ مَهْمَا قَدَّمُوكَ وَرَا

❁ الصحبة مفتاح الدخول لميادين القرب :

(فَاصْحَبْهُمُ وَتَأَدَّبْ في مَجَالِسِهِمْ) فاصحبهُمُ إن كان لك رغبة. لأنك لن تفضي إلى تلك الحقائق إلا بصحبتهم ، فـ (المرء على دين خليله)[1] وإذا لم يكن لك خليل منهم فكيف تدخل إلى ميادين القرب؟ فاصحبهم .. والصحبة جسدٌ وشبح؛ وروحها الأدب.

فلا تضيّع العمر ولا الفُرَص المعطاة لك ، فاصحبهم فإن الله لا يخلي زماناً عنهم في هذه الأمة .

❁ وجوب الأدب في الصحبة :

وَتَأَدَّبْ في مَجَالِسِهِمْ:

لتحصل المجانسة بينك وبينهم فَيُسرَقُ الطبعُ من الطبع ، وتُغرَسُ الصفات من الصفات ، وتَسْرِي الأذواقُ من الأذواق ، وتحلو الأحوال من الأحوال .

١- أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة (٤/ ١٨٩) برقم ٧٣٢٠ الناشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت .

❁ تركُ الحظوظ بنوعيها العالي والنازل :

(وَخَلِّ حَظَّكَ مَهْمَا قَدَّمُوكَ وَرَا): ما تهواه وتشتهيه نفسك مهما قدموك اتركه وراءك، ولا تقصد إلا رضا الله تبارك وتعالى في موالاتهم وفي خدمتهم وفي امتثال أمرهم وفي التأدب بآدابهم . وبقيةُ الحظوظِ خلِّها وراءك ، لا تأتِ بشيءٍ منها أَمامَك فيصيرَ إِمَامَك فيقطعَ ائتمامَك ، تظنُّ أنّك تأتمُّ به وقد اتخذت قِبَلَك أئمة آخرين تمشي وراءهم ، يؤمُّونك وهم ممن لا يحق لهم أن يَؤُمُّوا ..

❁ كمال الصحبة بترك الحظوظ ولو كانت من المقامات :

وكمال ذلك أن تكون في صحبتهم مخلصاً لله تبارك وتعالى ، لا تكون عِلّتُك وحظُّك المقامات ، فكلما ارتقيت وصفوت في هذا المعنى سرى إليك من سرِّ حضورهم ونظرِ الحق إليهم ما هو أجلُّ وأعلى ، ومهما كان لك حظٌ ومرادٌ قَصُرَ بك الباع وطال بك المدى حتى تبلغ الغايات .

> وربما حُجِبتَ بحظٍ من حظوظك عن عظيم الحظ الذي لا تعرفه ولا يخطر ببالك ، فشُغِلتَ بقليل الحظ الذي تعرفه عن عظيم الحظ الذى لم يبلغه فهمُكَ.

ولذلك وجدنا أن خيار الأمة صحبوا من هو خيْرٌ و من هو أجلُّ ومن هو أكملُ ، ثم على قدر أدبهم جاءت رُتَبُهم. السابقون الأولون كانوا أعظمَ أدبا وأكثرَ انطواءً ، وأشدَّ طاعةً ، وأكبرَ خضوعا وذلاً وانقيادا فصاروا هم

خيار الأمة ، ووصل حالهم إلى أنّ من بعدهم لا يلحقهم ولو عَمِل ما عَمِل، (لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه)[١] .

من أسرار الصحبة والمجالسة:

ومن أسرار إفاضة الله الجود بواسطة الصُحبَة ما نُبِّهَ به ذاك الرجلُ الصالحُ الحريصُ على الجماعة حينما شُغِلَ في ليلة ببعض الضيوف وجاء إلى مكان الجماعة فوجدهم قد صلّوا وذهبوا ، وقال في نفسه إن صلاة الجماعة تفضل على صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة ، فسأصلي العشاء سبعاً وعشرين مرةً . فحبس نفسه يصلّي العشاء سبعاً وعشرين مرة و لمّا نام نُبِّهَ فرأى أنه يمشي مع القوم الذين يصلّون جماعةً وهم على خيولٍ قوّيةٍ تجري بهم وهو على خيلٍ ضعيفٍ لا يكاد يمشي .. فقام يضربه محاولا أن يُحرِّكه ليلحق بهم وهم يسبقونه ، فالتفت إليه أحدهم ، وقال له: ماذا بك يا فلان؟ قال: خيلي يأبى أن يمشي . فقال له : لأنك لم تصل معنا الجماعة البارحة ، وما تراه من سرعة خيولنا إنما هو نتيجة صلاتنا في جماعة ، قال قد صليتُ سبعا وعشرين مرة؟ فقال له: لكن أين قولك (آمين) مع الإمام؟ أي قد فاتك مِن سرِّ الصحبة والمجالسة ما فاتك ، وإن صليت سبعا وعشرين ، لكن أين سر الصحبة؟ فلا تتعب نفسك. فقد فاتَك هذا فلا تقدر على اللحاق بنا. لقد فاتتك لحظةٌ مِن لحظات الفضل الرباني بسر هذه الصحبة ، نَزَل على المجتمعين جود إلهي لكنك لم تحصِّله .

١- أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري، كتاب فضائل الصحابة، (٣/ ٤) برقم ٣٦٧٩ ، المطبعة السلفية، ط١، ١٤٠٠هـ.

(٣) واستَغنمِ الوقتَ واحضُرْ دائماً معهمْ
واعلم بأنّ الرّضا يختَصُّ من حضرا

❁ **اغتنام شيوخ التربية وملازمتهم :**

(واستَغنمِ الوقتَ واحضُر دائماً معهُمْ): كلما لاحت لك الفرصة وقدرتَ على ذاك الاستقاء و ذاك الأخذ و ذاك التلقي وذاك الانصهار بإبعاد صفاتك الذميمة بما يفيض الله عليك من أنوار الصفات الكريمة.. فاغتنم ذلك.

(واحضُر دائماً معهُمْ) فحيث تمكنت بالجسد والقلب والروح معاً فذلك شأنٌ فخيم ، وإلا فلتكن الديمومةُ بالقلب والروح دائماً معهم .

ولسر أثر هذا الحضور وقدْرِهِ عند الله تعالى قال لهم صلى الله عليه وسلم (صلوا كما رأيتموني أصلي)[١]، في أي مكان صليتم استشعروا أن قلوبكم لها رابطةٌ بي.. كيف رأيتموني أصلي صلّوا مثل ما رأيتموني.. أي لا تنقطعوا عن الصلة بي، فإذا كان هذا في الصلاة التي هي الحضرة العظمى فمن باب أولى بقية الأعمال (خذوا عني مناسككم)[٢] ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١] أي على قدر محبتك تتبعني .. فأنت مربوط بي دائما ، لأنه إمام أهل حضرته.. وسيّد أهل قربه صلى الله عليه وآله وسلم.

١- أخرجه البخاري في صحيحه عن مالك بن الحويرث، باب رحمة الناس والبهائم، (٩/ ٨) برقم ٦٠٠٨.

٢- أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا، (٦٧٥) برقم ١٢٩٧، دار المغني، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(واعْلَم بِأَنّ الرِّضَا يَخْتَصُّ مَنْ حَضَرَا) أما من غُيِّبَ في غفلاته وغَاب في معوِّقاته وانقطع في كَسَلِه وتأخرهِ وتراخيه فيفوته ما يفوته من الترقي والتهذيب ، وربما أنّ مجلساً أو عملاً ثَبّطك عنه إبليسُ أو النفسُ و فيه فوزك الأكبر ففاتك ما فاتك بغيابك.

❁ الصحابة وحرصهم على الحضور مع رسول الله :

والمتأمل لسيرته صلى الله عليه وسلم يجده في عددٍ من غزواته يقول أين فلان؟ فلانٌ من شأنه أن لا يتخلف عني. وهكذا إلى أن قال كن أبا خيثمة[1] ، ولما جاء الذين تأخروا في حمراء الأسد فقال ما خلَّفكم عني؟ قالوا والله ما تخلفنا عنك يا رسول الله ولكنها جروح في جسدي أخرتني ، وأخي أشد جروحاً مني وكان يعجز عن المشي أحيانا فأحمله على ظهري ثم أضعه فيمشي قليلا ثم أحمله وأنا أخف جروحا منه حتى لحقنا بك الليلة ، وهو عليه الصلاة والسلام لم يدخل في مكان تهجُّدِه وراحتِهِ إلا بعد أن قال لمن حوله من القائمين على الخدمة والحرّاس إذا جاء فلان وفلان فأدخلوهما عليَّ لِما يعلم من الصدق في قلوبهم ، ولما يجب لهم من الحظ الوافر والعطاء العظيم ، فأراد أن يكونوا من الحاضرين ، وهو لم يقل هذا إلا وهو متوقع وصولهم في تلك الليلة ، ووصلا فعلاً وأدخلوهما عليه في الليل ، وسألهما فتحدثا معه صلى الله عليه وآله وسلم.

١- أخرجه مسلم في صحيحه، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، (١٤٨٢) برقم ٢٧٦٩.

كذلك تجد الصحابة في مسابقةٍ إلى معاني هذا الحضور يقول أحدهم شهدتُ مشهداً مِن فلان لو كنت صاحبه كان أحب إليّ مِن حمر النعم.. أحب إليّ مِن الدنيا وما فيها ، لأن ذلك العمل أَسَرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

❁ سيدنا عمر يُبرز للصحابة أهمية الصحبة:

.. ولما ذكروا عند سيدنا عمر فضله بالنسبة إلى سيدنا أبي بكر قال لهم : ليلة من أبي بكر خيرٌ من عمر وآلِ عمر ، أشار إلى ليلة الغار ، وأنزل الله مؤكداً لسر الصحبة ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فنصّ الله على صحبة الصديق لحبيبه صلى الله عليه وآله وسلم .

وأنتم تعلمون أيضا أن الذين تخلفوا بعذر عن بدر كانوا حاضرين بأرواحهم .. فقَسَمَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم حتى من الغنيمة ، وكان أحدهم إذا أخذ الغنيمة قال : وأجري يا رسول الله؟ قال : وأجرك ، وهو القائل: (إنما أنا قاسم والله يعطي)[1] وقسّم الغنيمة فطلبوا قسمهم من الأجر ، فكان يعطي لكل واحد منهم غنيمته وسهمه وحقه مثل مَن حضر مِن أهل بدرٍ.

وانظر كيف أدّب الثلاثة الذين تخلفوا عن الحضور في غزوة تبوك وكيف مرّت بهم خمسون ليلة ، كم كانت شديدة و صعبة عليهم ، لا أحدَ يكلِّمُهم ولا أحد يلتفت إليهم ، يمشون في الشوارع وفي المساجد وفي

١- أخرجه البخاري في صحيحه ، باب حديث من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين عن معاوية (١/ ٢٥) برقم ٧١

البيوت ولا يجدون من يكلمهم حتى أهلهم قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] ثم بُشِّروا بتوبة الله رضي الله تعالى عنهم.

(٤) ولازِمِ الصَّمتَ إلاّ إن سُئلتَ فقل
لا عِلْمَ عندي وكُنْ بالجَهْلِ مُسْتَتِرا

❁ **الصمت مِن صفات الخاشعين:**

(ولازِمِ الصَّمتَ) ولازم الصمت: أي لا تكن فضولياً ولا مشتغلاً بما لا يعني .. ولا مهذاراً ولا متطاولاً على ما ليس لك ، ولا معجباً ولا مدَّعياً ، فإنَّ مَنْ عِندَهُ هذه العيوب لا يصمت .. فالمُعجَب بنفسه والمدّعي بما ليس فيه وأمثالهم لا يصمتون .. إنما يصمت المتذلل الخاشع المتواضع .

❁ **ميزانٌ تربوي في إبراز العلم وعدم إبرازه:**

(ولازِمِ الصَّمتَ إلاّ إن سُئلتَ فقل .. لا علمَ عندي وكُنْ بالجَهْلِ مُسْتَتِرا) يشير بذلك إلى أن كثيراً من هذِهِ الأحوالِ يَليقُ فيها كمالُ الصمتِ وكتمُ العلمِ وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، فكثيراً منها يكون الأدب فيها أن تجيب بما عندك مع الأدب منتظراً ما ليس عندك كما يحصل ذلك عند المباحثة في مسائل العلم الظاهر مِن أحكام فقهية ونحوها .

وكان بعض الأكابر مِن المشايخ يحضر مدارس الشيوخ ولا يتكلم حتى يُوجَّه إليه السؤال ، فإذا وُجِّهَ السؤالُ إليه زَخَرَ عَنْ عِلمٍ واسع. ففي هذه الحالة الكلام أولى ، وفي مثل هذا الموقف قال سيدنا عمر للذي سأله فقال : الله أعلم!! قال: ما سألتك عَن علم الله ؟ قل : أعلم ، أو لا أعلم .

أدبٌ مِن الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

وموقفٌ آخر: يسألهم صلى الله عليه وآله وسلم : أيُّ يوم هذا؟ فيقولون الله ورسوله أعلم .. فهل صاروا لا يعرفون الأيام؟! أي بلد هذا؟ وهي البلد التي عاشوا فيها ويعرفونها ـ قالوا : الله ورسوله أعلم .. فهذا موقف من مواقف الأدب ، فقال عليه الصلاة والسلام : أليس البلد الحرام؟ أليس اليوم الحرام؟ قالوا: بلى[1].

مسلَكٌ تربوي يعلّمه الإمامُ الحداد لتلامذته :

ولهذا لمّا جاء بعض تلامذة الإمام الحداد[2] إلى الحبيب أحمد بن عمر الهندوان[3] وقال لهم في حديث الاستعاذة من الفقر (أعوذ بك من الفقر)[4] ما هو الفقر الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقالوا: نسمع مِن شيوخنا أن الفقر الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم

١- أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي بكرة، باب الخطبة أيام منى، (٢/ ١٧٦) برقم ١٧٤١.

٢- هو الإمام عبدالله بن علوي بن محمد الحداد ، ولد بالسبير من ضواحي مدينة تريم بحضرموت الخامس من شهر صفر ١٠٤٤هـ ، كُفَّ بصره وهو صغير فعوَّضه الله عنه بنور البصيرة ، سافر إلى الحرمين الشريفين عام ١٠٧٩هـ ، ولازال داعيا إلى الله باذلا في ذلك غاية جهده حتى كانت وفاته ليلة الثلاثاء ٧ من شهر ذي القعدة ١١٣٢هـ ودفن بمقبرة زنبل بتريم

٣- أحمد بن عمر بن عقيل الهندوان: أحد العلماء الأعلام ولد بتريم ورحل إلى الهند والحرمين ثم عاد إلى تريم ، أخذ عن كثيرٍ من العلماء منهم السيد أبوبكر بن حسين بافقيه والسيد عبدالرحمن بن عبدالله با هارون وعن الفقيه الأجل محمد بن احمد باجبير ، وأخذ عنه كثير من طلاب العلم منهم الإمام احمد بن زين الحبشي والسيد طاهر بن محمد بامغفون والسيد عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه وكان بينه وبين الإمام عبدالله الحداد مؤاخاة وامتزاج ، توفي بتريم سنة ١١٢٢هـ (انظر المشرع الروي ، وشرح عينية الإمام الحداد)

٤- أخرجه أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه، باب الاستعاذة، (٢/ ٩١) برقم ١٥٤٤.

هو قلة ذات اليد التي يقترن بها الجزعُ والتبرّمُ والسخطُ وعدمُ الرضا فسَكَتَ .. ولما رجعوا إلى الإمام الحداد سألهم عن زيارتهم وقال لهم : هل سألكم شيئا؟ قالوا : نعم وذكروا له سؤاله لهم ، فقال لهم الإمام الحداد : هذا موقفٌ لا ينبغي الإجابة فيه ، فعنده معنىً لطيفٌ لا تعرفونه سيُعلِّمكم إياه .. فلما ادَّعَيتُم العلم حَرَمْتُم أنفسَكم .. إذا سألكم مرةً أخرى في مثل ذلك فقولوا له : إنما نحن مستفيدون فعلّمونا مِن عِلْمِكُم. ولما رجعوا لزيارته في المرة الثانية أعاد عليهم نفس السؤال وقال لهم: ما هو الفقر الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقالوا :الله أعلم ، نحن مستفيدون مِن عِلْمِكُم ، فقال : هو خوف الفقر .. فإن خوف الفقر إذا حلّ في قلب لا يغتني صاحبه أبداً ولو ملك الدنيا كلها ويكون سبباً للمشاكل والبخل والتقاتل.



(٥) وَلا تَــــرَ العَيْــــبَ إِلا فِيْــــكَ مُعْتَقِــــداً

عَيبــــاً بَــــدا بَيِّنــــاً لكِنَّــــهُ اسْــــتَتَرا

تتبّع معايب الغير انصراف عن السير:

(وَلا تَرَ العَيْبَ إِلا فِيْكَ) بهذا يبيّن أساساً في السير إلى الحق تبارك وتعالى وسببا قوياً متيناً من أسباب القرب منه جل وعلا ، وأصلاً من الأصول التي تنبني عليها رياضة النفس ومجاهدتها وتقويمها وتزكيتها ، وضرورةً للفلاحِ والنجاحِ والفوزِ بفتح الفتاح ، وهو خُلُقٌ من الأخلاق اللازمة لجميع الصادقين مع الله والسائرين إلى الله ، وهو تقويم الشهود على ما يرضي الحقّ المعبود الموجود المقصود المشهود سبحانه وتعالى ، وما هو الشهود؟ شهودك فيما يتعلق بالنقص والكمال والمعايب والمحاسن ، والفضائل والرذائل ، فقد اختبرك الله تبارك وتعالى في هذه القضية وفَرَضَ عليك أن تَحمِل ميزاناً حسناً قويماً .. وهو أنه لم يسمح لك بشهود معايب الخلق وزلاتهم ومساوئهم ونقائصهم شهودَ محاسِبٍ لهم ، ولا وكيلٍ عليهم ، ولا مسْتَبِيحِ الترفُّعَ على أحدٍ منهم ، ولا جازمٍ بالحكم عليهم ولا منكشفٍ له عواقبهم وخواتيمهم.

> إذاً فكلُّ ما ثارَ مِن نفسك مِن تتبع معايب الغير فهو وقوف عن السير ، وإنْ شئتَ فقل انصرافٌ عنه .

فكل ما مالت إليه نفسُك من التشوفِ لمعايب غيرك وإلصاق العيوب بهم والحديث عنهم بها فهو انقطاعك ، وهو حرمانك ، وهو حجابك ، فإن ربهم و وَلِيَّ أمرِهم الذي إليه مرجعهم حَرَّم عليك أن تنظر بهذا المنظار ،

وقال لك عبادي وخلقي لا تتصرف فيهم إلا بمقتضى شرعي من واجب نصحٍ أو تَبَصُّرٍ في دعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وذلك الواجب تؤديه بصدقِ خضوعٍ في قلبك ، وعدم رؤيتك النقص فيهم ، وعدم الجزم منك بعواقبهم ، وما عدا ذلك من كل ما تُقِّر في نفسك من النظر إليهم بنظر الاحتقار أو أنهم محل المعايب والأقذار فإنك تخطيت حدود محارمي ودخلت إلى الحمى الذي منعتك الدخول فيه ، ولقد أذنتُ لك أن تصبَّ جميع شهود العيب والنقص فيك وفي ذاتك وفي نفسك فتنكسر لي فذلك أرتضيه لك وأرضاه منك ، فلا تقلب ولا تعكس الميزان ، ثم تقف أمامي كالمدلِّ عليّ بشيء مما وفّقتك له أو أعطيتك إياه ولا تدري بما فيه وحقيقة حاله عندي وما هي عاقبته .. أنت تريد أن تدلَّ به عليّ وكأنك المنّان الذي تمنّ به عليّ.. فتأتي إلى جميع عيوبك فترى كأن لا عيب عندك ، أو كأنك الذي قمت أمام ذلك العيب بالواجب وانتهى أمرك ، وأن الغيرَ هو صاحب المعايب ، فمن عَامَل الله بهذه المعاملة حَرَمَه المواصلة ، ولم يقبله للدخول إلى حضرته لأنه أساء الأدب مع الملك بإساءته الأدب مع مملوكيه ومملكته، قال سيدنا عيسى ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة: ١١٧ – ١١٨] فهم في الأصل مماليكك وخلقُك والأمرُ لك وما ذا لي أنا؟ أنا ابن مريم .. أنت مننتَ عليَّ و خلقتني من لا شيء وجعلتني آية ومَثَلا.. ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨].. هؤلاء عبادك وهذا وصفك .. قال سيدنا الخليل ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ

عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ثم قال الله عز وجل لأعظمهم أدبا وأعلاهم رتبةً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأنعام ١٤٧].. كيف هذا؟ المفترض مما يقتضيه السياق أن يقول: فإن كذبوك فحاربهم وقاتلهم وسبّهم ، ولكن قال له: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ هذا الله ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام ١٤٧] .. فهذا وصفه والحكمُ له فيكم ، و له الأمر فيكم ، ولا أدري بعواقبكم فانتبهوا لأنفسكم ، فأنا فقط مبلِّغ.. فلا تؤيّسهم من رحمتي ولا تُقَنِّطهم من عفوي ولا تكتم عليهم صفتي حتى وإن كذبوك.. فصلّى الله على سيد أهل الأدب، فبَلَغَ تلك الذرى والمراتب العلا إلى الحد الذي لّما حاربوه وأدمَوْهُ وجرحوه وقتلوا أصحابه ومثّلوا بهم وطلبوا منه الدعاء على أولئك فقال: (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)[1] فبحث لهم عن عذرٍ وهو أنهم لا يعلمون .. ولو علموا لكانوا هم أولَ السابقين .. ولو علموا لقالوا إن محمد بن عبدالله غنيمة الله التي جاءت إلينا ونحن من سنقوم بخدمته قبل أي أحد في هذا العالم ، لكن ما عَلِمُوا .... ولو عَلِمُوا ما قدروا أن يتأخروا ... والمعنى فعلّمْهم حتى يوقنوا ويرجعوا إليك وإلى تعظيم أمرك ونصْر رسلك .

١- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله بن عبيد، فصل في حدب النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ورأفته بهم، (٣/ ٤٥/ ١٣٧٥)، تحقيق: عبد العلي عبدالحميد حامد، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

❁ **غضُّ الطرْفِ عن عيوب الآخرين وطلبُ العذر لهم :**

(وَلا تَرَ العَيْبَ إِلا فِيْكَ مُعْتَقِداً): كلما حدّثتك نفسُك برؤية معايب الخلق فقل لها هذا حمىً محرمٌ عليكِ لا تدخليه فيحل عليكِ السخط ، ولن تستفيدي أو تستزيدي من ذلك خيراً ، ولن تنجحي أو تفلحي بسبب ذلك ، فاتركي التتبع لمعايب الخلق وخذي ما يفيدُك ، و اعلمي أن أمرهم بيد الله .. وأنَّ الله فرض عليّ أن أطلق عيني فيما علمت من محاسنهم ، وأغض طرفي متطلبا للمعاذير، وفي الأثر (إن المؤمن يتطلب المعاذير وإن المنافق يتتبع العيوب)[1] ، فالمؤمن يتطلب العذر .. فلهذا يقولون في إرشادهم: إذا آذاك أحدٌ واجترأ أو اعتدى عليك فاشهد ضَعفَهُ ، وأنه لو سُلِّط عليك مثل ما سُلِّطَ عليه لكنت مثله ، وأنَّهُ لو كان معه قوةٌ وعقلٌ ما وقع في هذا، فهو مسكينٌ واقعٌ الآن في الأسْر ..

فعند شهود ضعفه تَعْذُرُه وتتمنى أن يخرج من المأزق الذي وقع فيه ، وهذا منهج الأنبياء ومنهج الأصفياء .

❁ **الرحمةُ في التعامل مع ما يظهر مِن عيوب الآخرين:**

قالوا لسيدنا معروف الكرخي: هذا البحر يركبه بعض أبناء الملوك والأثرياء في نهار رمضان فيفطرون أمام الناس؛ ويشربون ويأكلون ويغنّون دون حياء فادعُ عليهم ، فرفع يديه وقال (اللهم كما فرّحتهم في الدنيا ففرّحهم في الآخرة)[2]، فتعجبوا من ذلك وقالوا له ماذا تقول!؟ نحن طلبنا

١- جاء في إحياء علوم الدين (٢/ ١٧٧) :قال ابن المبارك: (المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات).

٢- انظر البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الفاسي ت١٢٢٤هـ، (١/ ٣٩١)، ١٤١٩هـ .

منك أن تدعو عليهم فقال: إن فرحتهم لن تتحقق في الآخـرة إلا إذا تـابوا، فلم يكمل حديثه معهم حتى تحركت قلوب أولئـك، فالـذي أودع في قلبـه هذا المعنى وهذه الرحمة هو الذي حرّك القلوب هناك ، فترتب هذا على هذا .. أراد أن يرحمهم فسلّط الرحمة على قلبِ الفضـيل. وسرت إلـيهم السرـاية فقال هؤلاء القوم لبعضهم: لقد قل حياؤنا مِن الله ، نأكـل ونشرـب ونلهـو في رمضان وأمام الناس ، لماذا لا نتوب إلى الله؟ انظروا إلى ذلك الشيخ هناك لماذا لا نذهب إليه و نتوب على يديه .. فحركوا السفينة واتجهـوا بهـا نحـو الشيخ وقصدوا مجلسه ومدوا إليه أيديهم تائبين إلى الله عز وجـل ، وسـوف يكون لهم فرحٌ في الآخرة بصدق تـوبتهم إن شـاء الله تعـالى.. فهـذا يريـك مظهر العباد الصالحين.

❁ حالة خاصة في التعامل وبيان ضوابطها :

وما كان بَعْدَ ذلك مما وَرَدَ من الدعاء على أقوام فإن مصـدره : إمـا إذنٌ مخصوصٌ كما يحصل للأنبياء ، وإما غلبةُ حالٍ وشهودٍ فيـه ، وكِـلا الأمـرين أي الإذن وغلبة الحال لا يأتي إلا بعد إمهالٍ وبعد طولِ معاندةٍ ، أو مقتضىً يقتضي ذلك.

❁ واقعٌ عملي للحالة الخاصة : تعامل سيدنا نوح مع قومه :

فسيدنا نوح الذي قـال ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]، ما قال ذلك في أول سنة ولا مائة سنة ولا ثلاثمائة سنة .. لم يقـل ذلـك حتى أوحـي إليـه ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦] فـما هناك فائدة أبدا .. قد حكم الله عليهم.. فحينئذ قال: يا رب اكفنا شرهم..

بعد أن مضت تسعمائة وخمسون سنة .. ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٧] وأنت من أين يأتي لك خبر أن فلاناً لن يؤمن؟ فسيدنا نوح عنده خبرٌ من الله .. و معه إذن .. لكن أنت من أين لك مثل هذا الخبر؟ وأنت لا تدري فلعله يتحول الحال بعد ذلك .. ولعلك ترجع محلهم ويرجعون هم محلك.

قال الصحابي المقداد بن الأسود[١] يا رسول الله أمامي معايب كبيرة لهذا الرجل : كَفَر وأشْرَك وقاتلني وقَطَعَ يدي ، وبعد ذلك لاذ بشجرة وقال: لا إله إلا الله ، قال أفأقتله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا تقتله ، قال: قد قطع يدي. قال: لا تقتله. وهذه المعايب كلها ماذا أفعل بها ؟ قال: أبعدها .. واشهد الجمال.. (فإنك إن قتلته كنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته ، وكان بمنزلتك قبل أن تقتله)[٢].

فانظر كيف يحبط عملك كله وترجع أنت محل الكفر ويرجع هو مؤمناً بالله.

١- هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة وبسبب محالفته للأسود بن عبد يغوث الزهري في الجاهلية وتبنيه إياه أطلق عليه المقداد بن الأسود ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الفارس الوحيد في غزوة بدر ، ويقال لفرسه أول فرس عدت في سبيل الله ،ماتَ المقدَادُ بِالجُرُفِ على ثلاثةِ أميال منَ المدينة فَحُمِل على رقابِ الرِّجال حتَّى دُفِنَ بالمدينةِ بالبقيع وصلَّى عليه عثمانُ بن عَفَّان. وذلكَ سنة ثَلاث وثلاثِينَ. وكان يومَ ماتَ ابنَ سبعين سنة أو نحوها. (من كتاب الطبقات الكبرى).

٢- عن المقْداد بْن الْأَسْوَدِ ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ:يا رسول الله ، أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فقاتلني ، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ، ثم لاذ مني بشجرة ، فقال: أسلمت لله ، أفأقتله يا رسول الله ، بعد أن قالها؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تقتله» قال: فقلت: يا رسول الله ، إنه قد قطع يدي ، ثم قال ذلك بعد أن قطعها ، أفأقتله؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال) أخرجه مسلم في صحيحه، باب تحريم قتل الكافر بعد قوله: لا إله إلا الله،(٢٦/ ٩٥).

إذاً فلا بد أن تقوِّم ميزانك و تتأدب مع ربك في مماليكه .. فقد كانوا إذا اعتدى أحدٌ على عبدٍ من عبيد السلطان قام عليه السلطان ، وهؤلاء كلهم عبيد السلطان جل جلاله وتعالت عظمته .

وأنت خذْ لك ميزاناً من الشرع لا تتطاول عليهم إلا بما شَرَع لك .. بحسب ما شَرَع لك على الكيفية التي رَضِيها ، إذا تطاولت عليهم فسلطانهم قوي ، وأنت لا تقدر على قوته وقدرته جل جلاله، فهكذا ينبغي أن يكون نظرك .

❁ مسلك تربوي في اتّهام النفس والتبصر بعيوبها وتقويمها:

قالوا للإمام عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه[1] عليه رضوان الله لمّا غضب عليه بعض السلاطين فأمر بحبسه وطلب منهم أن يأتوا بزير كبير فيضعونه وسطه و لو ترك فيه فترة معينة سينقطع الأكسجين عنه و يموت ، ثم رفعوه عنه. فلما خرج من السجن جاء بعض زوّاره وأراد أن يتكلم على السلطان .. فقال : لا تتكلم على السلطان ، فقال له: إنَّ هذا اعتدى عليك .. يحبِسُك أمام الناس بغير حق بهذه الطريقة ، فهذا ظلم ؟ فقال له: لا . حبْسي كان ذلك له سبب مني ـ يرى العيب في نفسه ولا يراه في السلطان ـ قال إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «والذي نفسي بيده لتأمرن

١- عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بلفقيه: لقّبه الإمام الحداد (بعلّامة الدنيا) ، وجيه الدين وشيخ العلماء المتقين ، كان طودا في العلم حتى يقال أنه يتقن أكثر من ثلاثين علماً ، ولد بتريم عام ١٠٨٩هـ ، وتربى بابيه وأخذ عن جده لامه محمد بن عبدالرحمن العيدروس وخاله العلامة عبدالرحمن بن محمد العيدروس كما أخذ عن الإمام الحداد ، والشيخ إبراهيم بن حسن الكردي عالم المدينة المنورة ويحيى بن عمر الأهدل وغيرهم الكثير له عدد من التلاميذ منهم ابنه وعبدالرحمن بن مصطفى العيدروس وغيرهم له مؤلفات كثيرة منها كتاب رفع الأستار في ذكر سلسلة أخذه والقصيدة الفذة المسماة بالرشفات ، وكتاب شرح دوائر الدين وغيرها توفي بتريم سنة ١١٦٢هـ .

بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[١] ، وإن الخادمة التي جاءت بالماء في الأمس لم أسألها هل صلّت الظهر أم لم تصلّ؟ فقد قصّرت في ذلك ، فالسبب عندي وليس عند السلطان .. فعجيب حالُ هؤلاء الناس ، وكذلك مضى الأخيار.

❁ وقفةُ صدقٍ مع النفس:

والآن انظر كيف حالك؟ ترى العيوب في مَنْ؟ أمامك صورةٌ قاتمةٌ من عيوب الخلق وخصوصا بعض الناس المتحامل عليهم وغيرهم ، وتقول: هذا أوجعني وهذا اعتدى علي، والحقيقة أنه والله ما تسلط عليك إلا بأمرٍ من فوق ، ولتَسْلِيطِهِ عليك أسبابٌ مرجعها إليك ، ولو عامَلَك الجبّار بما تستحق لكان التسليط أكبر وأشد وأشنع ، فالأحسن لك أن تنتبه لنفسك وأن تعتقد العيب فيك .. فأنت المقصّر على وجه الحقيقة وأنت المذنب ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] فاشهد عيوب نفسك فهذا يغنيك عن شهود معايب الآخرين ، (وإذا أراد الله بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه)[٢].

١- أخرجه الترمذي في سننه عن حذيفة بن اليمان، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (٤ / ٤٦٨) برقم ٢١٦٩ ، وقال هذا حديث حسن ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، تحقيق أحمد محمد شاكر.

٢- حديث " إذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه "أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله " ورغبه في الآخرة " وزاد " فقهه في الدين " وإسناده ضعيف

انظر كتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، لأبي الفضل زين الدين عبدالرحيم العراقي ت٨٠٦هـ، كتاب الصبر والشكر، (١/ ١٥٧٩) برقم ٣٩٨٤ ، دار ابن حزم ، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(وَلا تَرَ العَيْبَ إِلا فِيْكَ معتقدا عيبا بـدا بينـا..) كـم خنـتَ الأمانـة في العمر؟ في العين؟ في الأذن؟ في اللسان؟ في البطن؟ في اليد؟ في الرجل؟ كم خنت الأمانة؟

وهذه العيوب كلها عَلِمَها الله أو ما عَلِمَها ؟ وهو مغطيِّها عليـك ، بـل أصلك محل المعايب والأقذار وهو يسترها عليـك ، وأنـت معـرّض في كـل لحظة لأن تعملَ مصيبةً ، أو تسيء الأدب ، فشُغْلُكَ بهذا يُشغِلُكَ عـن رؤيـة عيوب الآخرين.

ولا أحد من الناس يـرى نفسـه عـلى خطـرٍ وخـوفٍ ويقـول : اِذهبـوا وأنقذوا الناس ، هذا فلان سيسقط .. إذا رأى نفسه سيسقط لـن يقـول أن فلاناً سيسقط .. بل سيقول: أنا سأسقط أنقذوني.. حتى لو قال لك غـيرك أن أحداً هو أخطر منك سيسقط فأنقذه ، سيقول: بل لا يوجـد مـن هـو في خطر أكثر مني .. فأنا أحوج الخلق و أشدهم خطراً ، هذا في عالم الحـس .. وأما الخطر الآخر وهو الأكبر.. ربما في لحظة من اللحظات وإذا قلبك كَفَـرَ والعياذ بالله .. بعد ها من سـينقذك ؟ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

فأنت من هو على الخطر فلتنتبه ، فاعترف بذلك واصدق مع الله في هذا الاعتراف حتى تكرم بالإنقاذ.

وكيف لو جاء الناس لكي ينقذوا واحـداً مـنهم وقـد وقـع في الخطـر فقال: أنا لسـت عـلى خطـر!! .. بالتأكيـد سـيتركونه محلـه ..لأنـه لم يقبـل الإنقاذ.. ينادونه خذ هذا الحبل تمسك به واطلع مـن هـذا الغـرق .. يقـول لهم: أنا لست أغرق وهو في الحقيقة يغرق .. و يقول: لست أغـرق! ، ومـا

رضي أن يمسك الحبل .. ولهذا يجب عليك أن تعتَقِدَ عقيدةً جازمةً أن العيب فيك لأنك محل المعايب أصلا ، ومعرَّضٌ لها في كل وقت ، لكنه استتر ، وكم ستر عليك عيوبك سبحانه وتعالى .

يقول الحبيب عبدالله بن عمر الشاطري[1]:

تُخفِي القبائح عن أخيك سفاهةً
وإذا برزت تشابهُ النُسّاكَ
ولكم قبيحٍ كنت تخفيه ولو
علم الصديق بفعله لجفاكَ
والربُّ يعلمه ولم يكشفه بل
أجرى بألسنةِ العبادِ ثناك[2]

١- عبدالله بن عمر الشاطري : شيخ علماء تريم بل حضرموت وصدر صدور رباطها الفخيم ، ولد بتريم عام ١٣٩٠هـ ، وتربى على يد كبار علماءها مثل والده والإمام علي بن محمد الحبشي والإمام عبدالرحمن المشهور ومكث في مكة قرابة أربع سنوات ينهل من مناهل علماءها كالسيد محمد بن حسين الحبشي ، والشيخ محمد بن سعيد بابصيل والسيد أبوبكر شطا وغيرهم ، تولى مشيخة رباط تريم بعد وفاة شيخه الإمام عبدالرحمن المشهور من عام ١٣٢٠ إلى أن توفاه الله عام ١٣٦١هـ ولذا كثر عدد تلاميذه الذين من أشهرهم الحبيب علوي بن عبدالله بن شهاب الدين ، والحبيب الحسن بن إسماعيل الحامد ، والحبيب عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبوبكر بن سالم مؤسس رباط الشحر والحبيب محمد بن عبدالله الهدار مؤسس رباط البيضاء والشيخ محمد بن سالم البيحاني وغيرهم الكثير ، له ديوان شعر كما أفرده بالترجمة تلميذه السيد محمد بن سالم بن حفيظ في كتاب .(انظر كتاب نفح الطيب العنبري)

٢ – من قصيدة في ديوان الحبيب الشاطري ، صفحة ٩٠ مطلعها :

يا راتعا في الذنب ما أجراكا ❊❊ وبحب هذا الدار من أغراكا

إذاً فالفضل للساتر لا لمن يشكرك من الناس ، لولا سترُهُ لبدا عيبُك . لكنه استتر بفائض فضل الله تعالى ولطيف صَفْحِهِ سبحانه وتعالى وحجب أعين الخلق عن أن ترى عيوبك هذه.

❁ ميزانٌ ربّاني في التعامل مع المعايب:

فعلينا أنْ نقيم مِيزانا رَضِيَهُ منّا الرحمن في النظر إلى المعايب ، فننزّه ساحات قلوبنا عن تَتَبُّعِ معايب الخلائق أدباً مع صاحب المملكة والصنعة ، ولا نتصرف معهم إلا بميزان الشرع بما ارتضاه الحق لنا سبحانه وتعالى في الأقوال والأفعال مع المحافظة على القلب أن يلتوي عن محمود الخلال وعن سواء السبيل الذي ارتضاه ذو الجلال.

❁ أحوال قلوب الصادقين في حال النصح:

فإن الذين يُغلِظُون القول من أرباب العمل بالشريعة في وقته وحاله وموضعه ولأهله وحيث يُطلب منهم ذلك شرعا يُغلِظُون القول وهم قلوبٌ منكسرةٌ ، ولهم مطالعةٌ لما غَيَّبَ اللهُ تعالى من العواقب ، لا ينفُون إمكانية أن يكون الذي يُغلِظُون القول عليه شفيعهم يوم الوقوف بين يدي ربهم جل جلاله، فهذه أحوال قلوب العاملين بالشريعة على وجهها، فإذا أقمت هذا الميزان فيما يتعلق بمشاهدة المعايب ، واسترضيتَ ربَّك بإثبات العيب لنفسك وشهوده فيك ، واستحضرتَ بعض حقيقتك في نقصِك وضعفِك وعجزك وعظيم تقصيرك ، وتَعَرُّضِك لسخط باريك ، وكم بارزته في خلوة و جلوة بما لا يليق بعبدٍ ضعيف موجودٍ بإيجاد المولى المُنعِم عليه بنِعَمِهِ التي تتوالى فخُنتَ معه الأمانة ، وتجرَّأتَ على هيبته

العظمى ، ولم يعاجلك بالعقوبة ، ولم يكشف الستر عن قبائحك جل جلاله.

إذا علمت ذلك من نفسك ففيه شغلٌ شاغل عن أن تقول في فلان العيب الفلاني، فإن جميع معايب الخلق من أولهم إلى آخرهم لم يحجبك شيء منها عن الرتب العلى إلا معايبك فقط ، ولم يؤذك منها شيء فيوقعك في الردى أو يوصلك إلى العذاب إلا معايبك وحدها فقط ، ومعايب الآخرين أجمعين لا يضرك منها شيء ، و لا يصل العذاب بسبب شيء منها إليك ، لكن بما فيك يصل إليك العذاب، فشُغلُك بما فيك أولى، ويُذكَر في ذلك أبيات للإمام الشافعي يقول فيها:

إذا شئتَ أنْ تحيا سليما مِن الأذى
وحظك موفور وعرضك صيّن

لسانك لا تذكر به عورة امرئ
فكلك عورات وللناس ألسن

وعيناك إن أبدت إليك معايبا
فصنها وقل يا عين للناس أعين[1]

---

١ – ديوان الإمام الشافعي ـ دار المعرفة ـ بيروت لبنان ـ اعتنى به عبدالرحمن المصطاوي .. صفحة ١١٤ بلفظ :

إذا رمتَ أنْ تحيا سليما من الردى ❊❊ ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطقن منك اللسان بسوءة ❊❊ فكلك سوءات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معايبا ❊❊ لقوم فقل يا عين للناس أعين

مخاطبةُ صدق للنفس :

فارتقِ وقل يا نفس لله عين ، إن أردتِ أن يسترَ ما فيكِ فلا تشهدي العيب إلا فيكِ واستري معايب خلقه فأمْرهم إليه سبحانه وتعالى. فإذا كان الأمر كذلك فأنت دائمُ الاستغفار ، متشبِّهٌ بأطهر الأطهار الحبيب المختار الذي يستغفِرُ الله في المجلس مائةَ مرةٍ[1] صلوات ربي وسلامه عليه.

وعند إدامتك الاستغفار بهذا الخضوع والانكسار قد يبدو منك في وقت من الأوقات شيء من الإساءة والذنوب والأوزار واضحا بيّنا غير ما هو منعجنٌ فيك وملازم لك ومستترٌ في باطنك ، فتحتاج عند ذلك لأن تبادر وتسرع إلى الاعتذار والتوبة وتقتدي بأبيك آدم حينما خوطب ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢] واحذر من طريقة إبليس الخسيس فإنها توقعك في الإبلاس والإفلاس واللحوق بجيش الوسواس الخنّاس.

خوطب من قبل الرب سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٣] ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦]، إذاً فليكن حالك عند بُدوِّ أي تقصير منك ومخالفة ظاهرة غير ما هو ملازم لك

١- عن الأغر المزني - رضي الله عنه -: قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول: «توبوا إلى ربكم ، فو الله إني لأتوب إلى ربي تبارك وتعالى مائة مرة في اليوم». أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢) الذكر ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

ومطبوع فيك ومستتر ، وما يبرز ويظهر منك أن تبادر مباشرة إلى الاعتـذار والانكسار وتحقيق التوبة بجميع شرائطها[١] .



١ - وشروط التوبة : الإقلاع عن المعصية ـ العزم على أن لا يعود لمثلها ـ الندم على ما صدر منه ، هذه إن كانت بينه وبين الله ، وإن كانت متعلقة بحقوق الآخرين فيرد المظالم إلى أهلها ..

(٦) وَحُطَّ رَأْسَكَ وَاسْتَغْفِرْ بِلا سَبَبٍ
وَقُمْ عَلَى قَدَمِ الإِنْصَافِ مُعْتَذِرَا

❁ **الافتقار إلى الله من صفات السالكين:**

(وَحُطَّ رَأْسَكَ وَاسْتَغْفِرْ بِلا سَبَبٍ) حطَّ رأسَكَ رأسَ الرئاسة. فلا تطلب الرئاسة .. انزِل وحط رأسك .. لا تترأّس ولا تترفّع .. اخضع .. تذلل .. وخذ العبرة مما ذَكَر الشيخ[1] أنك أقرب ما تكون من ربك وأنت ساجد ، أي تحطُّ رأسك الذي هو أشرف أعضائك على الأرض ممر الأقدام فتكون قريباً من الله ، والمعنى أنه على قدر تذلُّلِكَ وخضوعك وانكسارك يكون قربك من الله .

❁ **دوام الاستغفار درب الأخيار:**

(وَاسْتَغْفِرْ بِلا سَبَبٍ) : استغفر دائما بلا سبب ظاهرٍ تحسُّ به ، لأنك قد اعتقدت الحقيقة التي فيك ، والأمر الذي قام عليه أصلك من ذلك الضعف وذلك العجز ، وأنت مع كل ذلك كم صدر منك؟ وكم كان منك؟ وكم قابلتَ النعمة بالكفران؟ واستعملت المنن في العصيان، إذاً فاستغفر دائما.

ولأن عندك من الذنوب مالا تعلمه أنت وهذا أعجب ، فعندك ذنوب لا تتصورها ولا تحس بها وهي فيك ومسجلةٌ عليك سطرها الكُتَّاب ولكنك لا

---

١ – أي ابن عطاء الله في شرحه للقصيدة الموسوم بعنوان (التوفيق في آداب الطريق) حيث قال: (أي تواضع وانكسر ، وحُطَّ أشرف ما عندك ، وهو رأسك في أخفض ما يكون وهي الأرض لتحوز مقام القرب ، كما ورد في الحديث: ((أقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى وهو ساجد)) لأن قُرب العبد ، بتواضعه وانكساره وخروجه عن أوصاف بشريته ، وأشهد نفسك دائماً مُذنباً ، ولو لم يظهر عليك سبب الذنب ، فإن العبد لا يخلو من تقصير...

تعتقد ها فيك، فنستغفر الله مما نعلم ، ومما لا نعلم ، ومما هو به أعلم جلَّ جلاله ..

وهناك ذنوبٌ قلبية باطنية حتى الكتَبَةُ خَفِيت عليهم ، وهي عند ربك جليّة وظاهرة ، وليس لك إلا هو جل جلاله يغفرها ، إذاً فأكثِرِ الاستغفار .. (وطوبى لمن وجَد في صحيفته استغفارا كثيرا)[١] ، (ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب)[٢] .. فالزم الاستغفار واستغفر بلا سبب .

❁ ميزان التعامل مع حقوق الغير والنظر في حقوق النفس:

(وَقُمْ عَلَى قَدَمِ الإِنْصَافِ مُعْتَذِرًا) قُمْ على قدم الإنصاف من نفسك ، غير منتصفٍ لها ، تُنصِف منها فتطالبها بأداء حقوق الغير غير منتصِفٍ لها .. فلا تطلب حقوقك من أحد ، وإن اعتلت رتبتُك لم تشهدْ لك حقاً.

❁ الإمام عمر بن عبد الرحمن يرسّخ هذا المعنى في تلامذته :

عندما كان الإمام عمر بن عبد الرحمن العطاس[٣] يمشي في الطريق ومعه بعض تلامذته .. مروا تحت بيتٍ من البيوت فرمى أهل ذلك البيت

١- أخرجه ابن ماجه في سننه عن عبدالله بن بسر، باب الاستغفار، (٢/ ١٢٥٤) برقم ٣٨١٨ ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

٢- أخرجه ابن ماجه في مسنده عن سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، باب الاستغفار، (٢/ ١٢٥٤) برقم ٣٨١٩ .

٣- عمر بن عبدالرحمن بن عقيل بن سالم العطاس العلوي الحضرمي القطب الرباني ولد بقرية اللسك وتربى بأبيه وبالشيخ الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم ، وعمر المحضار بن الشيخ أبي بكر بن سالم ، وتلقى عن محمد الهادي بن الشيخ شهاب الدين الأكبر ، والشيخ عمر بن عيسى با ركوة السمرقندي ، وأخذ عنه الجم من الأكابر

كناسة بيتهم مع ما فيها من الرماد ، فوقعت كلها فيه ، فأراد بعض تلامذته أن ينادي أهل ذلك البيت ويعاتبهم ويلومهم على رميهم للقمامة بهذا الأسلوب مع مرور الناس في الطريق؟ فقال له الإمام: اسكت . فقال : ألا نُنَبِّههم على سوء تصرفهم ؟ فقال له: من استحق النار فصولح على الرماد فمِنْ حَقِّه أن يرضى ، أي نحن بأعمالنا هذه وأحوالنا نستحق نزول النار فلم يُنزِلِ الله علينا النار وإنما قليلٌ من الرماد .. انتظروني سأذهب الآن و أبدّل ثيابي و أغسل وجهي وانتهى الموضوع ، فهذا أمر يسير بالنسبة لما نستحقه فمن حقنا أن نرضى .. ولكنه تربى على يد الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم[1] ففهم هذه المعاني وذاق هذه الكؤوس ، وذاك تربى على يد أبيه وسلسلة تربية إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فافهموا هذه المعاني وتأدبوا مع الله تبارك وتعالى.

تواضع أئمة الصدق ورجال التربية:

ولما زاره الإمام الحداد قال: ما رأيت متواضعاً مثله ، فسألت الله أن يكرمني بتواضعه .

ولما سُئِل كيف وجدت عمر بن عبد الرحمن العطاس؟ قال: وجدت قلباً وربّاً. لم يبقَ شيء من أثر النفس ولا الهوى. بل نورٌ خالصٌ .. قلبٌ وربٌ.

كالإمام عبدالله بن علوي الحداد والشيخ علي بن عبدالله با راس والإمام أحمد بن هاشم الحبشي وغيرهم الكثير ، أفرده بالترجمة علي بن حسن العطاس في كتاب اسماه القرطاس . توفي بحريضة سنة ١٠٧٢هـ (كتاب القرطاس).

١- هو الإمام الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم بن عبدالله أحد العلماء البارعين ، والوجهاء المبرزين وخليفة والده الشيخ أبي بكر فخر الدين ، ولد بعينات وتربى بوالده وأخذ عن الشيخ أحمد باجحدب والشيخ أحمد بن حسين العيدروس والشيخ محمد الهادي بن الشيخ شهاب الدين الأكبر ، وكان عالما بارعا تقيا ، أخذ عنه عدد من العلماء مثل عمر بن عبدالرحمن العطاس وابنه أحمد بن الحسين ، توفي في عينات سنة ١٠٤٤هـ (كتاب المشرع الروي).

وقالوا لعمر بن عبد الرحمن كيف رأيت عبد الله الحداد؟ قال: تريمُ تُرَبِّي ، فهذا من بلدٍ فيها تربية .

❁ التواضع ومظاهره في الحال والأعمال:

وما تقدمت الإشارة إليه من التواضع في قوله فقل : (لا علمَ عندي ، وكُن بالجَهلِ مُستَتِرَا) يقتضي حالاً وأعمالاً، فأشار إلى الحال بقوله:

ولا تــــــرَ العيـــــبَ إلا فيـــــك معتقـــــدا
عيبـــــا بـــــدا بيِّنـــــاً لكنـــــه اســـــترا

وأشار إلى الأعمال بقوله: وحطَّ رأسك واستغفر بلا سبب.

فهذه مظاهر التواضع ومحلّه القلب، مظاهره في الحال شهود العيب فيك ، ومظاهره في الأعمال أن تحط رأسك وتكثر الاستغفار ، وتنصف غيرك منك ولا تنتصف لنفسك؛ فهذا علامة التواضع .

❁ مِن مظاهر إحسانِ المعاملة مع الله :

(وَقُمْ عَلَى قَدَمِ الإِنْصَافِ مُعْتَذِرَا) فكانوا يعتذرون لمن أساء إليهم ، ويعتذرون لمن أحسنوا إليه فيطلبون منه العفو والمسامحة وهم قد أحسنوا إليه، فهذه معاملة حسنة ، لو عامَلْت بها أحداً من الخلق فسوف يحبك ولن يرى فيك عيباً أبدا وسيعطيك كل ما في وسعه ، فكيف إذا عاملت بها رب العالمين وأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين سيبدّل سيئاتك كلها حسنات .. سيقول هذا عبدي عرف ربوبيتي وألوهيتي فقام بهذه العبودية ، فأنا الذي سأكرمه .. يمحو سيئاتك ويبدلها حسنات ويرفع لك الدرجات لأنك

أحسنت المعاملة ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦] ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] فقد كنّا عدماً محضاً ، وهو الذي بدأنا بالإحسان وأحسنَ إلينا بالخلق ، وأحسن إلينا ببعثة الرسول ، وأحسن إلينا بإنزال الكتاب ، فما هذا الإحسان العظيم! هذا من الله ، وأحسن إلينا بهدايتنا إلى الإيمان ، وأحسن إلينا بوجهتنا ، وسمّى ذلك منّا إحساناً فكان إحسانا ثانيا ، ثم أفاض علينا به أموراً جلَّت عن الوصف فصار إحساناً ثالثاً ، ولا حصرَ لإحسان المحسن جل جلاله .. اللهم عاملنا بإحسانك ومحض امتنانك .



(٧) وَإِنْ بَــدَا مِنْــكَ عَيْــبٌ فَاعْتَــذِرْ وَأَقِــمْ
وَجْــهَ اعْتِــذَارِكَ عَــمَّا فِيْــكَ مِنْــكَ جَــرَى

❁ **تدارك التقصير بالاعتذار الصادق:**

(وَإِنْ بَدَا مِنْكَ عَيْبٌ فَاعْتَذِرْ وَأَقِمْ ** وَجْهَ اعْتِذَارِكَ عَمَّا فِيْكَ مِنْكَ جَرَى) فأنت محلّه وأنت أهلٌ لذلك النقص ، وذلك العيب ، وذلك الزلل ، فهو لم يأتِ من الخارج ، و لا من بعيد .. بل هو من عندك .. منك وفيك، إلا أن بعضه كان مغطى ، فاستعن بالله ، وقل: يا ستار استرني ، واغفر لي هذا الوزر ، ولا تخذلني بالعَودِ إلى مثله ، حقِّق توبتك إليه .. فليس الشأن أن لا تذنب ولكن أن لا تصر على الذنب لأنك لست بنبي ولا مَلَكٍ يُعصَم من الذنوب ، ولكن البلاء والمصيبة أن تذنب فتُصِرّ ، أن تذنب ثم تستكبر ، أن تذنب ثم تغفل عن التوبة وتعرض والعياذ بالله تبارك وتعالى ، أن تذنب فتُقِرَّ نفسك على الذنب ، هذه بلاياك وآفاتك وأبواب هلكتك، إذاً فبادر مباشرةً إلى حسن التوبة والاعتذار والإقرار والانكسار وليكن ذلك التصغير في الاسم والرسم والوسم ، وقل منكسرا : عبيدكم . تواضعا وأدبا. وقد كان سيدنا عبد الله بن المهاجر أحمد بن عيسى[1] يفرح بتصغير

١- عبدالله ابن المهاجر: الإمام الجواد عبيدالله ابن المهاجر إلى الله أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين ، تربى بأبيه المهاجر إلى الله ، واجتمع في مكة بالشيخ أبي طالب المكي وقرأ عليه كتابه قوت القلوب عام ٣٧٥هـ ، كان إماما بارعا كريما له أخلاق عظيمة ، متواضعا قد هضم نفسه بخموله حتى إنه كان يصغِّر اسمه إجلالا لربه فيقول أنا عبيدالله ، تربى به أولاده=

اسمه فيقول عبيدَ الله ، وإذا قال له أحدٌ يا عبد الله يقول له : إنما أنا عُبَيـد .. فقل يا عبيد الله ، فاشتهر بعبيدِ الله ، واسمه عبد الله فأحـبَّ تصـغيرَ اسـمه؛ لِمـا وقر في قلبه من تكبير الكبير ، كبَّر الكبير جل جلاله فصَغَّر اسمَهُ فعُظِّمَ عند ربِّه ، صغّر رسمه ، وصغّر وَسمَهُ : أي وصفه ، عبيدكم المذنب الحقـير المقصر المسكين المفتقر .

=الكرام جديد وبصري وعلوي رحمهم الله و توفي رضي الله عنه سنة ٣٨٣هـ ودفن عرض جبل مدينة بور .(كتاب المشرع وشرح العينية).

(٨) وَقُــــــلْ عُبَيْـــــــدُكُمُ أَوْلَى بِصَـــــــــفْحِكُمُ

فَسَـــــامِحُوا وَخُــــــذُوا بِـــــالرِّفْقِ يَــــا فُقَــــرَا

(وَقُلْ عُبَيْدُكُمُ أَوْلَى بِصَفْحِكُمُ) محتاج إلى عفوكم ، محتاج إلى صفحكم ، محتاج إلى ما يقتضيه كرمكم ، وما تقتضيه شيمتكم من التفضل يا متفضلون يا محسنون ، فإذا كانت هكذا المعاملة لله ، ومع الله ، ومع من حواليك خصوصا من أهل السير ومن أهل الدلالة والتعليم و المشايخ فصحت لك معهم المعاملة كان ذلك مفتاحَ رضا الرحمن عنك وسببَ وصولِ الخير إليك ، بل إحسان معاملتك معه جل جلاله وتعالى في علاه.

وخذ العبرة من أنه لا يقبل توبة تائب من ذنب يتعلق بأحد من خلقه حتى يسامحه ذلك المخلوق ، مع أن أصل الحق لله لا لأحد من الخلق ، وهو الذي وضع الحقَّ لهم ، ولكن إذا تعلّق بحق خلقه قال: اذهب إليهم أولاً ، فإن قلت يا ربي: أنت ربي وربهم ، قال لك: أنا ربك وربهم لكن ادخل من الباب. قال رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم: يحشرـ الله العباد[١] ــ أو قال الناس ـ عراة غرلا[٢] بهما قال : قلنا ما بهماً ؟ قال : ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب : أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة و لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار و عنده مظلمة حتى أقصه منه حتى اللطمة قال : قلنا : كيف ذا

١- أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها بلفظ «تحشرون حفاة عراة غرلا» قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذاك) باب كيف الحشر، (٨/ ١٠٩) برقم ٦٥٢٧ .

٢- غرلا : غير مختونين.

و إنما نأتي الله عراة غرلا بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات قال : و تلا رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] .

واذكر ربك بما فيه من الصفات العلى والأسماء الحسنى وقل: يا تواب يا غفار يا محسن يا منعم يا متفضل يا ستار يا عفو .. ولذا لمّا سألت السيدة عائشة رسول الله : (أرأيت إنْ أنا أدركتُ ليلة القدر فبمَ أدعُو؟ قال قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني)[١] .

يقول ابن عطاء الله في الحكم (ربما فُتِحَ لك باب الطاعة وما فُتِح لك باب القبول)[٢] ، فما تجد أثر الطاعة ولا نورها ولا بركتها ولا خيرها ولا شيئا من الثواب فيها، لماذا لا ثواب فيها؟ حُبِطَت برياء .. حُبِطَت بعجب .. حُبِطَت بالتفات إلى الخلق .﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]

لهذا يقول الإمام عمر المحضار[٣] بن عبد الرحمن السقاف: لو علمت أن الله قبل مني تسبيحة واحدة لضيّفت أهل بلدي تريم ثمانية أيام على البر واللحم شكراً على قبول التسبيحة عند الله، لأنه إذا علم قبول التسبيحة فقد

١- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مسند الصديقة عائشة (٤٢/ ٣٢١ – ٣٢٢) .

٢- الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري ـ شرح ابن عباد النفزي الرندي (ص٦٢) ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م

٣- هو الإمام القطب الشيخ عمر المحضار بن عبدالرحمن السقاف بن محمد مولى الدويلة بن علي بن علوي ابن الفقيه المقدم محمد با علوي التريمي من مواليد مدينة تريم تربى بوالده وحفظ القران العظيم وكان من محفوظاته كتاب منهاج الطالبين ، وأخذ عن الفقيه محمد بن أبي بكر بلحاج بافضل ، رحل الحرمين والشحر وكان عالما عاملا صالحا بلغ درجة القطبية ، وأخذ عنه كثير من الطلاب منهم الإمام العيدروس الأكبر وأخوه علي بن أبي بكر والسيد حسين بن الفقيه أحمد بن علوي والفقيه محمد بن علي بازغيفان وغيرهم الكثير ، توفي رضي الله عنه في تريم سنة ٨٣٣هـ بمدينة تريم .(كتاب المشرع الروي) وكتاب شرح العينية (ص١٩٥).

صار من المتقين ، والمتقون كلُّ شيءٍ لهم .. والجنة كلُّها لهـم . قـال: (وقضى عليك بالذنب وكان سببا للوصول)[١] ما معنـى ذلـك ؟ معنـاه انْكَسَرْـتَ وخَضعْتَ واستحييْت مِن ربك وأقبلت بصدق عليـه وذهـب عنـك جميـع وصمات الكبر والعجب بسبب هذا الذنب ، فوقع الذنب سـبباً للوصـول ، وهو ما يشير إليه الحديث (إنّ العبد ليذنب الذنب يـدخل بـه الجنـة ، قـالوا كيف يا رسول الله ؟ قال يذنب فيندم ويتوب ولا يـزال يلـوم نفسـه ويقبـل على ربه حتى يدخل الجنة)[٢] .

يكون ذلك بصِدق الندم وهو معنى ما قال في الحكمة الأخرى (معصيةٌ أورثت ذلا وانكسارا خيرٌ مِن طاعة أورثت عـزا واسـتكبارا)[٣]، وأشـار[٤] إلى ما يُروى في عدد من الكتب عن أنين المذنبين ويجعله بعضـهم مـن كـلام بعض الصالحين ، وينسبه بعضهم لسيدنا جعفر الصـادق ويرويـه بعضـهم حديثاً (أنين المذنبين خير عند الله من زجل المسبحين عجبا وافتخارا)[٥] أنين المذنب: الألم والندم على ما كان منه ، حسـرة على ما فرّط ، وفي لفـظ (أنـين المذنبين أحب إلى الله من صراخ الصديقين)[٦] وفي ذلـك إشـارة إلى أن مـن الأصوات التي يحبها الله صوت الندم على ما فرط الإنسان.

---

١ – الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص٦٢)

٢– أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (ص٥٢) ، وأحمد في "الزهد" (ص٣٩٦-٣٩٧) وروى النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٤٠٦) برقم ١١٨٥٧ عن الحسن بلفظ (إن العبد ليذنب فما يزال به كئيبا حتى يدخل الجنة).

٣– الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص٦٢)

٤– أي ابن عطاء في شرحه للقصيدة.

٥– ذكره في كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ت١١٦٢هـ، (٢٦١/ ٨٠٥).

٦– أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٩٦) برقم ٦٨٦٤ عن أبي بكر محمد بن عبدالله الرازي قال سمعت أبا علي صاحب عبدالله الجبلي يقول (أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : أنين المذنبين أحب إلي من صراخ الصديقين).

من صفات المؤمنين الندم القلبي والبكاء من خشية الله :

لقد كثرت الأصوات بالندم والحسرات من الصحابة والتابعين ومن تابعي التابعين رضي الله عنهم أكثر من غيرهم ، وهم الأنور وهم الأطهر ، فما أحوجنا لأن نتشبَّهَ بهم ، وقل لعَيْنِك كم لها من الدمعة من خشيته أو من الحياء منه أو من الندم على ما فرط منها؟ البارحة ألم يكن منك شيء؟ وقبلها ما كان منك شيء؟ فلِمَ تركت هذا للنبيين والمقربين والصديقين؟ وأنت ما بك؟ أخيرٌ منهم؟ أو أقربُ منهم؟ أو أعرفُ بكرم الله منهم؟ لِمَ لا تحملك معرفتك بذنبك على أن تئن وتحن وتتألم؟ ، أما تدري أنّ هذا الألم يكف عنك العذاب الأليم، الألم من الذنوب يكف عنك ألم يومَ تقلبُ القلوبُ .

بكى بعضهم ثلاثين سنة من ذنب ، ما الذنب ؟ قال نزل به ضيف فأراد أن يغسل له فأخذ من تراب جدار الجار ، وأعطاه الضيف ليغسل به فلما تذكر ذهب إلى الجار ليطلب المسامحة منه ؛ ومع ذلك بقي نادماً يبكي على هذا الذنب ثلاثين سنة، هذا عظّمَ الله وخاف من المعصية فكان حاله هكذا .. فكم يبدله الله بهذه الندامة والألم كرامة ونعيما ، وهذه سنته وحاله سبحانه وتعالى مع عباده ، وأما من كان لا يبالي بالذنب فحاله خطير .. فقد قال ابن عباس (من عصى الله وهو يضحك دخل النار وهو يبكي)[1].

ولمّا عَظّمَ الأمرَ بعضُ العارفين في شأن الطعام ووجوب الاحتياط فيه وخوَّفَهُم من ذلك وبالغَ فيه ، فقال بعضُهم وأنت من أين تأكل يا شيخ؟

١- انظر كتاب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال علاء الدين علي بن حسام الدين القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي ت ٩٧٥هـ، (٤/ ٢١٨)، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

قال: من حيث تأكلون ، ولكن ليس من يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك ، ولذا الندمُ على التقصير معجون بقلب المؤمن مقارنٌ للتقصير أبدا ، ولا يكون التساهل بالذنوب والفرح بها إلا وصف منافق، وفي الأثر (إن المؤمن يرى ذنبه كأنه صخرة يخاف أن تقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه فطار فذهب)[١].

قال الإمام الحداد :

ولــو أنــني أبكــي الــدموع وبعــدها الــدْ

دِمــاء عــلى مــا فــاتني يــا معــاتبي

لكــان قلــيلاً مــن كثــير ومــا عســى

يــرد البكــا مــن ذاهــب أي ذاهــب[٢]

ولما أُنشِدتْ هذه القصيدة في حضرته بكى حتى احمّر وجهه .. هكذا الصديقون وهكذا المقرّبون وهكذا الصالحون .. فنتشبَّه بمن؟ وننتمي إلى من؟ ونقتدي بمن؟ ونهتدي بهدي من؟ إن كانت الأيام تمر علينا ولا نعرف فيها البكاء لا ندامةً على التقصير وخجلاً من الذنب ولا هيبةً للرحمن

١- انظر كتاب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، في تفصيل الأخلاق، (٣/ ٦٩٩).

٢- البيت من قصيدة للإمام الحداد مطلعها :

تفيض عيوني بالدموع السواكب وما لي لا أبكي على خير ذاهب

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) ـ الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م (ص ٦٠) ـ اعتنى به السيد عبدالقادر الجيلاني بن سالم الخرد.

وشهوداً لجلاله ، ولا محبةً له وشوقاً إلى قربه ولقائه، وتعطَّلنا عن هذه الأوصاف كلها فبأي وصف نحن متصفون؟

ودمعـــــةْ وَجَـــــلْ أَجَـــلْ مِــــن جبـــلْ

صُرِفْ صَـــدَقةْ مِــــن ذَهَـــبْ أو طَعَــــام(١)

ودمعةُ وجلٍ ـ أي خوفٍ ـ دمعة تخرجُ مثل رأس الذباب من خشية الله .. وأعلى منها من محبة الله .. أفضلُ من جبل ذهب تتصدق به بلا دمعة ، ودمع السحور ينير القبور اللهم انظر إلينا ووفقنا ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] .

(وَقُلْ عُبَيْدُكُمُ أَوْلَى بِصَفْحِكُمُ ** فَسَامِحُوا وَخُذُوا بِالرِّفْقِ يَا فُقَرَا)

فإنني ضعيف لا يصلح لي إلا الرفق حتى أُعَانَ على الخروج من ورطاتي وتصلُحُ حالاتي .

قاعدة الانكسار مِن أجل الله إذا قامت كان الله عند صاحبها ، ومَن كان الله عنده وَهَبَهُ وُدَّهُ ، و أتحفه سبحانه وتعالى رِفدَهُ ، فسَهَّل صَعبه وحقّق قُربَه فأدخلهُ في الأحبَّة ، فدوام الاستغفار وشهود مولانا سبحانه وتعالى وإفضالِهِ آناء الليل وأطراف النهار وشهود ما كان منا من التقصير والأوزار أساس في تقويم المسار.

١- من منظومة للحبيب محمد الهدار ـ الفصل الثالث ـ مطلع القصيدة :

فذي العشر كان النبي الكريم   إذا دخلت أبـــدا لا ينام

النفحات الرمضانية للحبيب محمد عبدالله الهدار ـ دار البارودي للطباعة والنشر (ص ١٠٨) .

فلا بد من تحقيق انكسار القلب من أجل الله تبارك وتعالى ، والقيام على قدم الإنصاف من غير انتصاف ، والمبادرة إلى الاعتذار عند ظهور التقصير والعيب ، وأن يكون الاعتذار بلسان تليق بالمعتذر المنكسر ـ فيصغر نفسه اسما ووسما ورسما يقول : عبيدكم أولى بصفحكم ، فيخاطِب الخطاب اللائق؛ يخاطب ربه ويخاطب من صَحِبَهُ من الصالحين ، ويخاطبُ إخوانه كذلك ، قال عن أولئك القوم : إذا طلبت المسامحة منهم ـ والله أسمح وأصفح وأكرم منهم ـ إن جئتهم بهذه الصورة و قد حققت الندامة وعزمت على الاستقامة وتذللت وخضعت وأنبت وخشعت ، فلا تخف فإنهم محل الكرامة ، وأصل المنح والإنعام



(٩) هُـــمْ بِالتَّفَضُّـــــلِ أَوْلَى وَهْـــــوَ شِـــــيْمَتُهُمْ

فَــــلا تَخَـــــفْ دَرَكَــــاً مِـــــنْهُمْ وَلا ضَرَرَا

(هُمْ بِالتَّفَضُّلِ أَوْلَى وَهْوَ شِيْمَتُهُمْ) هم بالتفضل: أي بالعفو والصفح والمسامحة أولى، وهو شيمتهم، إذْ قد تخلقوا بمحمودات الأخلاق ومحبوبات الخلاّق جل جلاله، فكانوا في العالمين مظهرا لرحمته ولكرمه جل جلاله وتعالى في علاه، إذاً ما داموا بهذه الصورة فاغنم الرجوع إليهم، وأمّل عند الرجوع إليهم فائض جود الله سبحانه وتعالى عليك بهم.

(هُمْ بِالتَّفَضُّلِ أَوْلَى وَهْوَ شِيْمَتُهُمْ) لأنهم لا ينتقمون لأنفسهم ولا ينتصفون لها، ولأنهم لا يقابلون السيئات إلا بالحسنات. لأن كلَّ إناءٍ بالذي فيه ينضح، ولأنهم في حالة أدب مع الرب يشهدون أن كل ما حصل من أحدٍ من إيذائهم أو التقصير فيهم فإنما قُدِّر ودُبِّر لهم من فوق ليُختبروا؛ فلا يلقون اللائمة على صاحبه، ويشهدون الحكمة من مالكه المتصرف فيه الذي سيّره في هذا الأمر، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فلأجل القوة والتمكن في هذا الشهود صاروا لا يلقون اللائمة على الغير، ولا يشهدون فيه الاستقلال أصلا، فحينئذ لا يمكن أن يتحاملوا ولا أن يغلُّوا ولا أن يحقدوا وقد علموا مَن الفعّال. قال سيدنا نوح لقومه ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] وخاطب سبحانه وتعالى نبيه الأكرم بهذه الحقيقة والمعنى. يقول ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧] ويقول له سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ

فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٤١] و يقول تعالى ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦].

ولذلك لم يأتِ عتابه للصادق عند التخلف إلا رحمة بذلك الصادق لينال نصيبه من زيادة الانكسار والقيام على قدم الاعتذار والانكسار والإنصاف، ولذا كان عليه الصلاة والسلام يعرض عن المعتذرين غير الصادقين .

وكم كذب المنافقون أمامه بأعذارٍ كاذبةٍ وسكت عنهم، لأنه عرف أنهم ثُبِّطوا من فوق ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ ﴾[المائدة: ٤١]﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦] فعلم الحكمة لذلك، وقد جاءت سيرته صلى الله عليه وآله وسلم على هذا الكمال، فما طُلبَ منه الدعاءُ على قومٍ إلا عَدَلَ عن الدعاء عليهم إلى الدعاءِ لهم، ولا أقوى منه في شهود الفعّال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ولا أحسن أدبا منه معه.

(هُمْ بِالتَّفَضُّلِ أَوْلَى وَهْوَ شِيْمَتُهُمْ ** فَلا تَخَفْ دَرَكاً مِنْهُمْ وَلا ضَرَرَا): إنما يكون ذلك عند أهل النفوس و أهل الأهواء، فهؤلاء مهما اعتذرت منهم لا يقبلون لك عذراً، ولا يرحمون لك شأناً ولا حالاً ولا ضعفاً، وينتقمون منك، أما أهل المسالك أحباب المالك فما تشم منهم إلا أطيب الروائح، ولا تجد منهم إلا العنبرَ و المسكَ الفائح، ولا تجد فيهم إلا خير ما يُلمَحُ من الملامح في العفو والصفح والسماح والجود.

(فَلا تَخَفْ دَرَكاً مِنْهُمْ وَلا ضَرَرَا) فاغنم حسن الاعتذار والمبادرة إلى التوبة بالانكسار.

❁ أهمية الرفيق والمعين في الطريق إلى الله

ثم اعلم أنه لا بد لك في الطريق من رفيق ، ورفيقك في الطريق المريدون الآخذون عن الشيوخ الذين اتصلت بهم والذين أخذت عنهم ، هؤلاء رفقاؤك في الطريق ، فلا بد أن ترعى حق المرافقة وأن تقوم بواجبها حتى يصح لك السير ويتحقق لك الخير.

فكيف تكون مع المشايخ؟ وكيف أيضا تكون مع رفقاء الطريق من إخوانك؟

لابد أن ترعى الحرمة لهم ، فهم أعوانك في السير ، وهم قوّتك في تحقيق الوجهة والتصفية عن الغير ، ألم تر أن الله يقول لسيدنا الكليم ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص: ٣٥] إذا كان كليم الرحمن وهو النبي يُشَدُّ عَضُدُهُ بالآخر فكيف بالسائرين إلى الله تعالى ، فلا بد أن تعرف ذلك .

فإذا عرفت ذلك فأقم قاعدة الفتوّة ، وكن متفتيا في الحس وفي المعنى على هؤلاء الإخوان ، فإنه بمحافظتك على التفتي تقلع جذور المقاطعة والمنازعة ، وتُبعِد أسباب تشويش المسار والعيش بينكم ، ولذا قال :

(١٠) وَبِالتَّفَتِّيْ عَلَى الإِخْوَانِ جُدْ أَبَداً
حِسَّاً وَمَعْنَىً وَغُضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَثَرَا

جد بالتفتي ؛ والفتوةُ وإِنْ جَمَعَت معاني مكارم الأخلاق فأول ما يُقصد منها في عالم الحس ما يُفاض من النَّيل والإفادة والمساعدة ، و في عالم المعنى ما يكون كذلك من الإرشاد إلى جواهر المعاني وإلى لطائف الدلالات وحقائق الوجهات من الرب سبحانه وتعالى.

❁ **مسلك الفتوة :**

ومسلك الفتوة هو مسلك الأنبياء ومسلك الصالحين والأصفياء ، فكذلك يجب على المريدين أن يقتدوا بهم ، واشتهر حتى بين الكفار لما ذكروا سيدنا إبراهيم ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ ﴾ [الأنبياء: ٥٩] ﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ ﴾ [الأنبياء: ٦٠] فتى: أي صاحب فتوّة ، ﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠] قال الشاعر :

ليس الفتى من يدعي بالسالفات ويقول كان أبي وكان جدي[١]

وهو لم يعمل شيئاً ، إنّ الفتى مَن يقول أنا ، على منوال قولهم:

لسنا وإنْ أحسابنا كَرُمَت يوماً على الأحسابِ نتّكِلُ
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا[٢]

١ – للمتوكل الليثي (التذكرة الحمدونية ـ ابن حمدون ـ (ص٤١٢)

٢ – لعبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر الطيار

وجاء صاحب همةٍ ليقول: ونفعل فوق ما فعلوا، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢].

فتوّة سيدنا إبراهيم الخليل:

واشتهر سيدنا الخليل إبراهيم أنه أبو الضيفان حتى قيل إنه لم يكن يأكل وحده قط، فلا يأكل إلا مع ضيف .. بلغ به الارتقاء في الفتوة أنه عرض الإسلام على مجوسي وقف على بابه ليطعمه فأبى فذهب المجوسي، فأوحى الله إليه لِمَ رددت عبدي في غداء هذا اليوم؟ قال: يا رب عرضت عليه الإسلام فأبى، قال سبحانه وتعالى: أنا ربه وأرزقه كل يوم منذ خلقته وقد كفر بي وأنت بخلت عليه بهذا .. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، يا رب سأذهب وأبحث عنه، فخرج يبحث عنه في السوق حتى لقيه ودعاه للغداء، فقال ألم آت إلى عندك وقد رددتني؟ فقال إبراهيم :عاتبني فيك ربي، قال: ربك يعاتبك فيَّ وأنا كافر به؟ قال: نعم فمدَّ يده و أسلم و شهد أن لا إله إلا الله وشهد أنه رسول الله. وحسن إسلامه.

انظر و تأمل معنى عاتبه ربُّهُ فيه. أبى الله للخليل إبراهيم أن يقبض رزقه وقد تيسر له إجراء الرزق على يده حتى ينالَهُ الثوابُ من الله.

فما هذه الفتوة؟.. كان أمة وحدة.. تلك فتوة المعنى .. وكان يَعرِض عليهم الإسلام ويشرح لهم ويبيّن لهم ويقول لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الأنبياء: ٦٦ – ٦٧]، فأَبوا .. فكان أمة وحده.

❁ قمة الفتوّة لخاتم الأنبياء وإمام المرسلين:

ولكن القمة في الفتوّة لنبـي الأمـة ، ففتُّوَتُـهُ في عـالم الأرواح قبـل أن توجد الأشباح حين خاطبهم الرب فلم يَعرِف أحدٌ أن يجيبَ فعلَّمهم و هـو الذي قال بلى فقالوا بلى . فسجد أمامهم فسـجدوا ، فسقى الأرواح كلهـا معنى المعاملة مع الفتاح سبحانه وتعالى ، ما هذه الفتـوة؟!! فلـه المنـة ولـه الفتوة على كل روح ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مِن قبل عالم الأشباح صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله ، ثم جاء إلى عالم الحس فكان أسخى النـاس ، وكان الذي يجوع ويجوع أهل بيتـه ويعطـي النـاس وينسـى حـق نفسـه ، ويقول: (لو ذكَّرتموني لتركت ما تفطرون عليه وقد أنفق الألوف) صـلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه.

فواجب المريد أن يكون مقتديا ، وبهذا الهدي مهتديا ، ليتفتى أصـحابه وأعوانه وإخوانه في الطريق.. يتفقـدهم.. ينظـر حاجـاتهم.. يواسـيهم بـما يسـتطيع.. يسـاعدهم فـيما يسـتطيع.. يعـودهم في مرضـهم.. يعـاونهم في نوائبهم ..

(وَبِالتَّفَتِّيْ عَلَى الإِخْوَانِ جُدْ أَبَداً ** حِسَّاً وَمَعْنىً وَغُضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَثَرَا)

❁ من سِمات الفتوّة غضّ الطرْف عن العثرات:

ومن جملة التفتي والفتوة ما جاء في قوله: (وَغُضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَثَرَا) فكـما أرشدك إلى أن لا تشهد العيب إلا فيك ، فَغَضُّ الطـرفِ عـن العثـرات مـن الفتوة.

❁ صفات الفتوّة في أصحاب رسول الله :

وقد مر ابن مسعود رضي الله عنه على قوم يلعبون و يتكلمون بكلام سيء فسأله أحدهم ما يقولون لك ؟ فقال: لم أسمع ـ إعراضاً منه عما يقولون ـ فقالوا :قد كَرُمَ ابن مسعود.

وقد مشى مرة إلى السوق ومعه دراهم ربطها في عذبة عمامته ، وجاء يشتري .. فتحاور مع البائع و تبايع ، ثم أخذ يحل العمامة فلم يجد الدراهم فقد سُرِقت منه.. ، فلما شعر من حواليه بأن هناك من سرق عليه الدراهم أخذ يقول: من هذا الذي يأخذ على صاحب رسول الله؟ فقال: لا . فسكَّتَه. ثم قال: اللهم إن كان أخذها عن حاجة وفاقة فبارك له فيها وأنا قد طيّبت بها نفسي ، وإن كان مستكثرا أخذها بطرا فاجعلها آخر معصية له .

هذا ابن مسعود .. و هذه تربية محمد أخرجهم فتياناً تحققت فيهم صفات الفتوة.. لولا التربية النبوية التي جاءتهم لكان شأنهم آخر. فكلنا يعلم ما كان يفعله عامة العرب ، لكن هذه هي التربية النبوية ؛ تربية محمد صلى الله عليه وسلم . ردّهم إلى هذه الصورة و هذه المثابة.

❁ فتوّة العارفة بالله رابعة العدوية :

وهكذا دخل سارق إلى بيت العابدة العارفة رابعة .. فبحث في البيت فلم يجد شيئا ، ولما أراد الخروج نادته وقالت له: هل ترى ذاك الماء؟ توضأ منه وصلَّ ركعتين في هذا الموضع ، ودعت ربها تعالى له بخير ، فتغيّر حال

الرجل ، فقالت: كَرِهْتُ أن تخرج من بيتنا بلا شيء. فخرج وهو في حال طيب.

ولو أن إنسانا فقد هذه التربية والأخلاق سيقول هذا رجل خبيث ، قليل الحياء ، يريد أن يسرق من بيتي ، لابد أن تقطع يده أو يطالب بحبسه ، ولكنها بفتوتها قالت له: كرهت أن تخرج من بيتي بلا شيء . ولا بد أن نعطيك مما عندنا ، فما وجد مالاً ولكنه وجد نوراً واتصالاً بالله وخرج وهو في حال آخر ..

فلابد لنا من مراعاة رفقاء الطريق من الإخوان والزملاء والأصحاب والأقران ، فلنتحلَّ معهم بحلية التفتي ، لنلحق بالفتيان ونتصف بالفتوة ، فالشيخ فتى والمريد السالك متفتي ، حتى يصبح فتى ، يتكلف شئون الفتوة ويؤدي معانيها وحقها حتى تصير فيه راسخة.

فإذا سمع المريد هذه النصيحة وعمل بهذه التوجيهات المليحة ، وانتهى عن رعوناته القبيحة ، تهيأ لنوعٍ من المرافقة عليٍّ ، وشأن يقرّبه من حضرة الولي ، ليتولاه فيصبح وليا بِحُسْنِ المطالعة في الصفحة المفتوحة له من قِبَل الله ، ليرى فيها من محاسن ومزايا صفوته محمد بن عبد الله ، وما تلك الصفحة إلا الشيخ الدال ، صاحب الاقتداء في الأقوال والأفعال ، مِن الذين قد ذاقوا لذيذ الوصال ، بعد أن تحقق لهم الاتصال ، ثم نازلوا الوصول إلى الكبير المتعال وعاشوا في لذيذ الوصال ، فهم لمن اتصل بهم صفحات مفتوحة من قِبَل الرحمن ، يطالعون فيها الجمال الأقدس لمن أُنزِل عليه القرآن، حينئذ عند المطالعة لتلك الصفحة ينازلك من الله تبارك وتعالى جوده ويعطيك مَنْحَهُ وفَتْحَهُ بحسن المراقبة التي تكون من أجلِ الله وبالله؛ معنى من معاني المراقبة لله ، أو معنى من معاني مراقبة اللهَ، فإنكَ مسترشد تريد أن تُرشَد وأن تكون محمودا مع من لهم الرب يَحمَد، فلذلك الطلب والصدق في الرغب تنظر في صفحة الشيخ لتستدل على موجب الوصول وسبب السعادة التى ما لنجومها من أفول .

(١١) وَرَاقِبِ الشَّيْخَ فِي أَحْوَالِهِ فَعَسَى يَرَى عَلَيْكَ مِنِ اسْتِحْسَانِهِ أَثَرَا

❁ مطالعة مرآة الشيخ المشرقة بترقب أحواله الشريفة:

(وَرَاقِبِ الشَّيْخَ فِي أَحْوَالِهِ): ففيه استرشادك لتظفر بإمدادك وتحوز نصيبا من ودادك.

> راقب الشيخ في أحواله فإنه مرآة القدوة ، ومنبع الفتوة ، لا تسري إليك الفتوة إلا من بابه ، ولا تنصَبُّ عليك أنوار المعرفة إلا في رحابه.

فإذ قد فتح الله لك ذلك الباب فمنه فادخل ، وتأمل شأن القول والعمل والقيام والقعود ، وأحوال الركوع والسجود ، في حركات الشيخ وسكناته ، ونظراته ، وخطراته ، فإنك عند فتح تلك الصفحة لتطالع فيها يكون اجتلاؤك منها ما سبق في الأزل أن تصير إليه ، وما أرادت إرادة الحق جل جلاله أن يوصل إليك، وكلما أراد أن يوصل إليك وأرادك أن تصل إليه تشاهده مشاهدةً في هذه الصفحة البهيّة وحروفها النورانية، فإن أراد أن يَحطَّك لَوَى مشهدك إلى البشريات ، و طوى عنك الخصوصيات ، فأصبحت تظن في الشيخ معايب لم تقرب منه ولم تَدْنُ إليه ، وتظن فيه نقائص ما حامت حول حماه ، ولا حول حمى من صدق في حبّه ، وما هي إلا فيك ، أراد الله تعالى أن يجعلها فيك ويجعلك من أهلها فأشهدك إياها في

مرآة صافية ، وما كانت الكدورة إلا من عينك المغشّاة باكتساباتك الخاطئة، ألم تَرَ أن الأمم أجمعين إنما كان حالهم بين الإيمان واليقين ، وبين الكفر والضلال المبين ، بحسب ما شاهدوا في المرسلين، فهؤلاء قالوا ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ [يس: ١٥] وقالوا ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣] ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٧].

والآخرون قالوا : آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق فأمْرُنا تبعٌ لأمرك ، خذ ما شئت ، ودع ما شئت ، حارب من شئت ، وسالم من شئت ، نحن حربٌ لمن حاربت ، وسلمٌ لمن سالَمت ، اقطع حبال من شئت ، وواصل حبال من شئت. آمنا بك وصدقناك[1] .. فانظر إلى مشهودهم في الرسل كيف انقلب عليهم؟ انقلب على هؤلاء كفرا وجحودا وتكذيبا ، وعلى هؤلاءِ خالصَ إيمان ، وكأسَ عينِ يقينٍ ، وحقِّ يقين .. شربوها هنيئة مريئة عليهم رضوان الله. فكذلك أحوال المريدين مع الشيوخ إلى آخر الزمان.

١- انظر كتاب سيرة ابن هشام لجمال الدين عبدالملك بن هشام ت ٢١٣هـ، اسْتِيثَاقُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَمْرِ الْأَنْصَارِ، (١/ ٦١٥) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

إذا أراد الله بالمريد خيراً وأن يجعل له عنده قدراً صفّى مرآة مشهده في الشيخ فرأى القدر العلي ، والمرتقى السني ، فيشرب الكأس الهني ، ويدخل في حِزْبِ المولى الغني. وإذا أراد أن يصرِفَه ويُبعِدَه عن حضرته طوى عنه الخصوصيات ، فأشهده ما يظنه مثلبة وما هناك مثلبة .. وما يظنه عيباً وما هناك من عيبٍ ، ولكنَّ انحراف نظره ، وعلّة بصره أرته الأشياء بغير حقيقتها ، ليُدْفَعَ ويُصْرَفَ ..وفي الحكم (فسبحان مَن لم يجعل الدليل على أوليائه إلا مِن حيث الدليل عليه ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه).

۞ الاقتداء والاهتداء بالشيخ الوارث وأثرها على المريد :

(وَرَاقِبِ الشَّيْخَ فِي أَحْوَالِهِ) لتقتدي و لتهتدي و لتعرف سر المعاملة و لتتصل بأرباب الصفات الكاملة و لتسري سرايات الصفاء إليك وسناء المحاسن و لتنقدح في قلبك وتبدو عليك وتظهر على جوارحك وأقوالك وأفعالك من السقيا من بحر اللقيا ، بواسطة الأدب وسعة المشهد وحسن الظن ، وبغير ذلك كما قال الشيخ ابن عطاء الله (لو صحبت قطب الزمان – أجلّ أولياء زمانك وأرفعهم شأنا وأعظمهم وأرسخهم قدما في الإرث النبوي ـ ثم لم تتأدب وتحسن الظن لم تزدد إلا بعدا) والعياذ بالله – كما كان حال مشركي قريش والمنافقين، فالمنافقون يدخلون إلى المسجد ويصلُّون مع سيدنا محمد .. فما أدركوا؟ إلا أن يكون مأواهم الدركُ الأسفلُ من النار والعياذ بالله تعالى.

الأدب مع الشيوخ سلّم للارتقاء:

وفي هذا الشأن ذكروا قصة الشيخ عبد القادر الجيلاني عليه رحمة الله في بداية أمره حيث انصرف مع اثنين يزور بعض أرباب التمكين والرسوخ واليقين من العباد العارفين فجلسوا منتظرين خروج الشيخ فأبدى كلٌّ ما في نفسه ، فأحدهم قال جئت أختبر الشيخ ومعي له مسائل سأسأله عنها حتى أراه هل يجيب عنها أو يفتضح؟

وقال الثاني الذي بجانبه: أنا إنما جئت لأنظر الشيخ وأرى ما عنده ولا قصد لي في اختباره إنما أنظر في أمره فقط .

قال سيدنا عبد القادر: أما أنا والله فقد قصدته لله ومن أجل الله واعتقد أنه بابٌ من أبواب فضل الله ، وأنه نور من أنوار الله ، وأنه سبب من أسباب جود الله تعالى.

وبينما هم جالسون إذ أقبل الشيخ وجلس بينهم وابتدأهم بالكلام قال: فلانٌ جئت تختبرني وعندك مسائل!! مسألتك الأولى في نفسك كذا وجوابها كذا ، والثانية كذا وجوابها كذا ، والثالثة كذا وجوابها كذا .. اذهب فما أراك تموت على الملّة.

وقال للثاني: قلت تنظر في أمرنا فانظر ما شئت أن تنظر ، وكأني بك قد غرقت في الدنيا إلى شحمة أذنك.

ثم قال للثالث: عبد القادر من أجل القادر قصدتني ولأجل الله زرتني ، وشهدت فيّ مشاهد فضلِ ربك .. كأني بك على كرسيك في بغداد تتبوأ منزلة تقول فيها قدمي هذه على رقبة كل وليٍ لله.

وانتهى المجلس مع الشيخ ، وذهب الكل ومرّت السنوات وصُرِفَ قلب ذاك الأول إلى التعلق بفتاة نصرانية .. وأخذ يخطبها من أهلها ويأبون عليه ولم يزل يتابعهم حتى اشترطوا عليه أن يتنصَّرَ ـ فأوحى له شيطانه ونفسه إلى أنْ تَنَصَّرْ فترةً ثم ارجعْ إلى الإسلام من أجل أن تَحْصُل على مطلوبك ، فتنصّر ومات على النصرانية والعياذ بالله. فهذا حال الذي يريد أن يختبر الشيوخ .. مغترا بعلمه أو بعقله أو بفهمه .

وأما الرجل الثاني فقد وُلِّي القضاء وغرق في الدنيا إلى شحمة أذنه .. ومرّت الأيام وجلس سيدنا عبد القادر مجلس الدلالة على الفاطر ، والتنوير بنور الوجه الزاهر والنور الباهر ، وجاء الوقت الذي صار فيه الخليفة الأعظم لخير البشر ، والأولياء من تحته ، وقال : قدمي هذه على رقبة كل ولي لله سبحانه وتعالى، وكلٌّ بحسب مشهده كان له المدد وكان له العطاء.

قال : (وَرَاقِبِ الشَّيْخَ فِي أَحْوَالِهِ فَعَسَى ** يَرَى عَلَيْكَ مِنِ اسْتِحْسَانِهِ أَثَرَا)

فإذا كنت كذلك ترقَّب أنوار النبوة في إرث الشيخ في مظهر الوراثة ، ترقَّب أنوار النبوة في قيامِهِ وقعودِه ، وركوعِه وسجودِه ، وأخذِه وعطائِه ، وقبوله ورفضه ، وطريقة نظره إلى الأشياء ، ومعاملتِهِ مع الكائنات من أجل الله تبارك وتعالى ، حينئذ اغنمِ الفرصة وقدّم الجد ، فإنه إذا اختلط العزم في الطريق بشوب التردُّد ، وبالهزل في القول بطل السير وانقطع الخير ، ولم يصل صاحبه إلى الرتب ، وإنما يكون الوصول لذي عزيمة صادقة ، وحبل موصول ، لا يتردد ولا يتراجع ، ولا يلتفت إلى الوراء ، ولا يخلط الجد بهزل.

(١٢) وَقَـــدِّمِ الجِـــدَّ وَانْهَـــضْ عِنْـــدَ خِدْمَتِـــهِ
عَسَـــاهُ يَـــرْضَى وَحَـــاذِرْ أَنْ تُـــرى ضَـــجِرَا

❁ **مواصلة الجد وعدم التردد و الالتفات للوراء:**

(وَقَدِّمِ الجِدَّ وَانْهَضْ عِنْدَ خِدْمَتِهِ ** عَسَاهُ يَرْضَى) فيكون علامة لرضوان من فوقه، ورضوان الحق ورسوله.

(وَحَاذِرْ أَنْ تُرى ضَجِرَا) مستثقلا للأوامر والاقتداء والسير فينعكس ذلك فترى نفسك ضَجِرا عند أوامر الله، ضَجِرا أمام توجيهات الرحمن.

وترى نفسك ـ إذا أنصفت ـ كما ضَجِرت من أوامر الشيخ، تجد نفسك مباشرة ضَجِرا من أوامر ربك في كثير من أحوالك، غير قائم على الأمر بالفرح ولا بالرضا ولا بالصدق، وإذا كان كذلك فهو الانقطاع والضياع – والعياذ بالله تبارك وتعالى – لذلك يحتاج المريد في إرادته وأوّل أمره إلى مواصلة للجد وعدم تردد ولا التفات للوراء قطعا:

يقول الإمام الحداد:

عزمت شأقطع[١] كل أمر أرى ... في قطعه نيل المقام الكريم
وأرفض الدنيا الغرور التي ... من حبّها كان الحجاب مقيمْ
والنفس والشيطان أعصيهما ... بقوة الله العلي العظيمْ
أُوَلِّي الأكوان ظهرا ولا ... أرى سوى الله العزيز الحكيم[٢]

١- أقطع

٢- البيت من قصيدة للإمام الحداد مطلعها

يا من هواهم بقلبي مقيم ... وحسنهم في مشهدي مستقيم

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) ص ٤٨٠.

.. نسأل الله أن يحيي القلوب ويقوّي رابطتنا بحبيبه المحبوب ، وييسر بنا في خير الدروب ويسقينا على أيدي ورثة الحبيب سُقاة الكأس من أحلى مشروب إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

مَن لا صَحِبْ في زمانه شيخ عارف مكين

مرّت حياته وهو معدود في المفلسين[1]

(مَن لا صحب): أي بالأدب والتعظيم والمحبة وحسن الخدمة.. (شيخ عارف مكين مرّت حياته وهو معدود في المفلسين)، وحُقّ لأَنَس أن يفتخر إذا وُصِفْ أن يقول خادم رسول الله ، وحُقَّ لابن مسعود أن يفتخر إذا وُصِفَ أن يقول خادم رسول الله .. خادم من؟ خادم سلطان الحضرة أقرب المقربين إلى الرب .

❁ أثر الأدب مع الله في التعامل مع الخلق على أحوالنا :

جاء في الصحيحين أنَّ امرأة من بني إسرائيل تأدبت مع الله فخدمت كلباً وسقته فغفر الله لها ، خرجت إلى البئر وما هناك دلوٌ فنزعت خفها وملأته ماءً ووضعته في فمها وصعدت .. وسقت الكلب من الماء الذي في خفها فغفر الله لها[2] ، فهذه المرأة خدمتْ كلبا فغُفِر لها فما تظن بمن خَدَمَ نبياً؟ و ما تظن بمن خدم وليا؟ و ما تظن بمن خدم مؤمنا؟ هذه تأدبت

---

١ - البيت للإمام علي بن محمد الحبشي من ديوان الجوهر المكنون.

٢ - حديث المرأة التي سقت كلبا فغفر الله لها، ذكره في الصحيحين في البخاري(٤/ ١٥٨) برقم ٣٣٢١ وفي مسلم (٧/ ٤٣) برقم ٢٢٤٥.

وخدمت الكلب فغُفِر لها فما ترى في خدمة المقـربين والصـالحين والمـؤمنين والأنبياء والمرسلين؟ رزقنا الله حسن خدمتهم في عافية.



(١٣) فَفِــــيْ رِضَـــــاهُ رِضَــــا البَـــــارِيْ وَطَاعَتِــــــهِ

يَــــرْضَى عَلَيْـــــكَ فَكُــــنْ مِـــــنْ تَرْكِـــــهِ حَــــذِرَا

❁ **صدق محبّتنا لله محبّتنا لأوليائه مِن أجله تعالى في علاه:**

علامة محبتك لله محبتك لأوليائه ، وعلامة محبة الله لك محبة أوليائه إياك ، فإذا أحبوك كان علامة على أنه يحبك ، وإذا صدقت في محبتهم كانت علامة أنك تحبه جلَّ جلاله وتعالى في علاه .

فما أحبَّ اللهَ من لم يحب أولياءه ، وما أحبَّ الله من لم يحبّ صفياً من أصفيائه ، وما أحبَّ الله من لم يحب أهل حضرته جل جلاله ، ما أحب الله من لم يحب أهل قربه سبحانه وتعالى.

فبِصدقِ المحبة لله تحب كل ما نُسِب إلى الله على العموم عامة وعلى الخصوص خاصة حتى أنك ترى بينك وبين صنعته وكائناته معنى من العاطفة لغلبة محبتك له سبحانه وتعالى ، ومن أحب شيئا أحبَّ صنعتَه ، وبذلك تقوم بالمنهاج الذي شرعه لك في التعامل مع هذه الكائنات.

(فَفِيْ رِضَاهُ رِضَا البَارِيْ) : أي : رضاه علامة على رضوان الله عنك سبحانه وتعالى ، وبطاعته عز و جل تكسب محبته ورضاه.

(فَكُنْ مِنْ تَرْكِهِ حَذِرَا) أن تفوتك الفرص ، وإذا فاتت الفرصة تحولت غصة على صاحبها وندامة وحسرة والعياذ بالله تبارك وتعالى.

فاكسب رضا المقربين والمكْرَمِين والشيوخ العارفين المربين فهي العلامة التي يبرزها الله في عالم الحس على رضاه جل جلاله وتعالى في علاه ، ويشهد لذلك ما جاء في الصحيح (إن الله إذا أحبَّ عبدا نادى جبريل يا

جبريل إني أُحبُّ فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم يأمره أن ينادي في أهل السماء يا أهل السماء إن الله قد أحبَّ فلانَ بن فلانٍ فأحبوه فيحبونـه)[١] : فيتقـرب إلى الله سكان السماوات من الملائكة بمحبة فلان بن فلان ذلك البشر الـذي يأكل ويشرب وينام ويمشي على ظهر الأرض؛ يتقرب سكان السماوات إلى الله بمحبة ذلك الإنسان ، (إن الله أحب فلان بن فلان فـأحبوه قـال فيحبـه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض).

قـال ابـن عبـاس رضي الله عنـه في قولـه تعـالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم: ٩٦] .

قال : وُداً منه ومودةً في قلوب أوليائه[٢] ، فـإذا حقّـت عليـه وصـدقت وحلّت له و طابت له محبـة الله سـبحانه وتعـالى وثَبَتَـتْ سـلّط عـلى قلـوب العارفين محبة ذلك المحبوب لديه جل جلاله وتعالى في علاه ، فـإنهم يحبـون بحبه الناس ويعادون بعداوته من خالفه من خلقه جل جلاله ، فلا يوالـون إلا من والاه الله ، ولا يعادون إلا من عاداه الله سبحانه وتعالى ، كـما علّمنـا صلى الله عليه وآله وسلم طلب الوصول إلى هذا المقام في هذا الدعاء الـذي حفظه عنه ابن عباس وهو يقول: (نحب بحبك الناس ونعـادي بعـداوتك من خالفك من خلقك)[٣].

١- أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، (٢/ ٤٢٤) برقم ٣٢٠٩ .

٢- قال ابن عباس ، ومجاهد: يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال: سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآية ما هو؟ قال: «المحبة فِي صدور المؤمنين ، إن الله أعطى المؤمنين المقة والألفة والمحبة فِي صدور الصالحين» .

انظر الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت٤٦٨هـ، تفسير سورة مريم، آية ٩٦، (٣/ ١٩٧)، طبعة دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٣- أخرجه البيهقي في كتابه الأسماء والصفات، باب جماع أبواب ذكر الأسماء، (١/ ١٦١/ ١٠٥)، تحقيق: عبدالله الحاشدي، مكتبة السوادي – جده، ط١، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

فَفِيْ رِضَاهُ رِضَا البَارِيْ (وَطَاعَتِهِ) أي: وفي طاعته طاعـة البـاري جـل جلاله.

❁ عظمة شأن السير إلى الله وعزته:

واعلم بأن ما نتحدث عنه من شؤون حقائق هذا السير ، وعظيم هذا الخير ، والوصول إلى الرب ، والانقطاع عن الأغيارِ والغيرِ : أمرٌ عزيزٌ.. شريف .. كريم .. ليس بهين .. ولا بممتهن ، ولا يُوهبه إلا أهل السوابق ، ولا يُعطاه إلا من سبقت السابقة بوصولهم إلى الحقائق ، وخروجهم عن مضايق العوائق والالتفات إلى الخلائق.

اعلم بأن التوفيق من الحق تبارك وتعالى لعبـاده أمـرٌ عزيـزٌ ، ولعزَّتـه لم يُذكَر في القرآن الكريم إلا مـرة واحـدة ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨] فكيف شأن حقـائق السـير ثـم الوصـول ، والـدخول في دوائر خصوص القبول ، من البر الوصول ، ومواصلته بما لا تكيِّفه العقـول ولا يعبّر عنه المقول من جوده الذي يعرض ويطول ، وعطائِهِ الذي لا ينتهي ولا يزول . إذا أدركت ذلك (فاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ دَارِسَةٌ) .

ليس كل مَن تحدّث عنها فهو مِن أهلها ، ولا كل مَن ذكرها سار في سبيلها ، ولا كل مَن قصدها ثبت عليها ، ولا كل مَن بدأ في الثبات وصل إلى حقيقتها ، ولكنها قِسَمٌ من ذي الكرم بها أخّرَ وقدّم ، وخصّص وعمّم ونوّر وأظلم ، فله الحمد على كل حال ، وإليه يرجع الأمر كله في جميع الأحوال.

فكن صافي البال حريصا على العزيز لدى الملك العزيز ، فإنه الشأن الذي يختص الله به من سبقت له منه السوابق الكبرى ، وأراد حقائق إسعادهم بالسعادة الكبرى في الدنيا وفي الأخرى ، اللهم ألحِقنا بهم وثبتنا على دربهم.

(وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ دَارِسَةٌ) وحُقَّ لها أن تكون كذلك لأنها عزيزة .. لأنها غالية .. لأنها شريفة .. لأنها جليلة.. وهو من معاني ما جاء في الحديث (إن من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر)[1] ما يؤتاها إلا القليل ، ولا يحصّلها إلا النادر ممن سبقت لهم السابقة بالتفضيل ، يقول (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أوتي حظه منهما لم يبالِ ما فاته) أي لا يُعدّ شيءٌ فائتٌ عليه بعد أن يتوفر حظه من اليقين ومن عزيمة الصبر ، وهما المظهران للسير وللوصول .. فأربابُ السير صادقوا العزيمة كما في قوله :

(وَقَدِّمِ الجِدَّ وَانْهَضْ عِنْدَ خِدْمَتِهِ *** عَسَاهُ يَرْضَى وَحَاذِرْ أَنْ تُرى ضَجِرَا) :

---

١ – ذكره في الإحياء ، قال العراقي: لم أقف له على أصل ، وروى ابن عبد البر من حديث معاذ: ما أنزل الله شيئًا أقل من اليقين.انظر كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس لإسماعيل العجلوني، (١/ ٢٦٠/ ٨٠٢)، مكتبة القدس، ١٣٥١هـ.

لا تعتريك مشقة ولا ملل ولا فتور ولا كسل عند اقتحامك للعزائم والشدائد.

قال الله لسيد أهل الوصول والإيصال إليه ، وخير الدّالين عليه محمد بن عبد الله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وفي هذا تربيتنا من الله .. وإلا فعبده المصطفى سيد الصابرين ، والذي تفيض منه أنوار الصبر على الصابرين ، وهو سيد أولي العزم من الرسل ، وأولو العزم من الرسل تحت ظل لوائه في يوم القيامة ، وهم المأمومون وهو الإمام في الدنيا والآخرة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] تعليمٌ لنا أن نواصل ونصبر وننأى بأنفسنا عن استجابة دواعي الكسل والفتور والميل إلى التراخي والميل إلى التخلف ، اللهم إنّا نعوذ بك من الهم والحزن ، ونعوذ بك من العجز والكسل ، ونعوذ بك من الجبن والبخل ، ونعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.

وفي حِكَمِ الإمام الحداد قال : اختصمَ العجزُ والحرمان أيهما أضر بصاحبه فترافعا إلى العقل ــ كلُ واحدٍ يقول أنه أضر بالإنسان ـ فقال العجز : أنا أضر شيء على الإنسان ، قال الحرمان : أنا المصيبة على الإنسان ، فترافعا إلى العقل من أضر على الإنسان؟ فقضى بينهما أن العجز أصل والحرمان فرع له ، لهذا أمرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن نستعيذ بالله من العجز والكسل ، فإنك إذا عجزت وكسلت انساق إليك الحرمان كله ، وحُرِمت الخيرات بسبب عجزك.. بسبب كسلك.. بسبب تراخيك..

بسبب تباطئك في السير .. بسبب عدم انتهاضك.. بسبب عدم اتخاذك مطية العزم ، وهكذا علمتم أن السائرين إلى الطريق قالوا:

هـــا قـــد علمـــتُ ولا شـــكٌّ يخـــالطني
أن الطريقـــــةَ في خرقـــــي لمعتـــــادي

وتـــركِ مـــألوفِ نفـــسٍ زانـــه خلـــقٌ
أنجـــو بـــه بـــين أشـــكال وأضـــدادي

وقـــد تحققـــتُ أن الخـــير أجمعـــه
ضـــمن اتّبـــاعي لجـــدي المصـــطفى الهـــادي[1]

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وبيّن بعض التفصيل في هذا السير بكلامه الآخر حيث يقول:

عزمـــت شـــأقطع كـــل أمـــر أرى ... في قطعـــه نيـــل المقـــام الكـــريم
وأرفـــض الـــدنيا الغـــرور التـــي ... مـــن حبهـــا كـــان الحجـــاب مقـــيم
والـــنفس والشـــيطان أعصـــيهما ... بقـــوة الله العـــلي العظـــيم
أولي الأكـــــوان ظهـــــرا ولا ... أرى ســـوى الله العزيـــز الحكـــيم
يـــا رب هـــب لي منـــك حســـن اليقـــين ... وعصـــمة الصـــدق وقلبـــا ســـليم

١- الأبيات من قصيدة للإمام الحداد مطلعها:

قل للذي جد بالأظعان يا حادي ... سقها رويدا ليلقى الحاضر البادي

ديوان الإمام الحداد المسمى (الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) ص ١٨٢ .

وهمـــة تعلـــو وصـــبرا جميـــل ونـــور توفيـــق بـــه أســـتقيم
وحســـن تأييـــد وعونـــا يـــدوم فإنــك الــدائم وجــودك عمــيم[1]

ومع هذا الصبر والعزيمة والهمة القوية ماذا تشهد نفسك؟ وماذا تـرى نفسك؟ قال

أرجـــــــوك تعطينـــــــي الـــــــذي أبتغـــــــي
بمحـــــض فضـــــلك لا بجهـــــدي الـــــذميم[2]

يقول: أنا وعزماتي وصدقي واجتهادي من عندِك يـا رب .. بفضـلِك يا رب .. إحسانٌ منك يا رب .. أرجوك تعطيني الذي أبتغي .

تقول ذلك وأنـت قـد قطعـتَ كـلَّ مـا في قطعـه نيـل المقـام الكـريم ، ورفضت الدنيا التـي مـن شـأنها الحجـاب كـان مقـيم ، وعصـيت الـنفس والشيطان بقوة ربك ، ووليّتَ الأكوان ظهرا ، وما تطلب شيئا بنفسـك ولا بعملك ؟ قال:

أرجـــــــوك تعطينـــــــي الـــــــذي أبتغـــــــي
بمحـــــض فضـــــلك لا بجهـــــدي الـــــذميم

وهل إن صح لي شيءٌ من كل هذا العطاء إلا منك؟ فكيف أُدِّلُ عليـك بعطائك! كيف أمنُّ عليك بفضلك وإحسانك! أنت تحسن إليّ ، ثم أنا أمنّ عليك؟ المِنَّة جل جلالك .. فانظر كيف يشهد نفسه.

١- البيت من قصيدة للإمام الحداد مطلعها

يا من هواهــم بقلبي مقيــم وحسنهم في مشهدي مستقيم

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) ص ٤٨٠.

٢- البيت من القصيدة السابقة للإمام الحداد.

ويقول في بيان حقيقة الفرد من أهل هذه الطريقة العظيمة الجليلة:

مـــاذا يقـــول المنكـــرون	في مَـــن لـــه قلـــب سـليم
عـــلى جميـــع المســـلمين	وقصـــده المـــولى الكـــريم
ويعتقـــــد في نفســـــه	بأنـــه عبـــد ذمـــيم
لــــولا عنايـــة ربــــه	لكـــان بطـــالا ضـــلول
الله حســـــبي وكفـــــى	قـل مـا تشـاء يـا ذا الفضـول[1]

هذا حالُ أهلِ الطريقة.

---

١ – من قصيدة للإمام الحداد مطلعها :

قل للذي قـد لامني   دعني وشأني يا عذول

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ٤٢٦)

(١٤) وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ دَارِسَةٌ
وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيْهَا اليَوْمَ كَيْفَ تَرَى

(وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ دَارِسَةٌ) من أين سُمُّوا قوماً؟ قيل إنهم أخذوه من الحديث الذي جاء في الصحيحين (هم القوم لا يشقى بهم جليسهم)[١] جليسهم)[١] ولما كان الاجتماع على الذكر مظهرهم وشعارهم وعماد طريقهم سُمُّوا القوم ، وسُمِّي ذلك المسلك الراقي العالي الشريف بمسلك القوم ..

(وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ دَارِسَةٌ) طريق القوم التي هي حُسْنُ السير على قدم الإحسان بعد التحقق بالإسلام والإيمان والعلم والبيان ، يستقيمون على قدم الإحسان المفضي بهم إلى العرفان ، ومقام العرفان درجته ورتبته ودائرته هي خاتمةٌ لما قبلها ، وهي أُولى لما بعدها ..

(وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ) طريقتهم القائمة على الإتباع .. على ذلك الهدى .. على ذا المسلك الذي يقول عنه الإمام الحداد:

وأُصْلِتُ من غمد السجية مرهفا
من العزم ماض قد تحاشا عن الفل

سأبكي عليهم ما حييت بعبرة
لها مدمع في الخد يشهد بالثكل

١- أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، باب فضل ذكر الله عز وجل، (٤/ ١٧٣) برقم ٦٤٠٨ .

وأحمـــل نفســـي مـــا اســـتطعتُ عـــلى اقتفـــا
ســـبيلهم حتـــى أُوَسَّـــدَ في الرمـــل[١]

(وأُصِلتُ) ـ يصلت أي يُخرِجُ وَ ينْشُرُ سيفا ـ (من غمـد السـجية) أي: الطبيعة .. (من العزم) : سيف قوي من العزم . (ماضٍ) : حادٌ قـاطعٌ (قـد تحاشا عن الفل) : ليس فيه فلولٌ ولا تكسرٌ .

ولهذا قالوا: إن الصدق سيف ما وُضِعَ على شيء إلا قـدّه ، فـما أحسـن الصدق مع الله .. رزقنا الله حقيقة من ذلك .

(وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ دَارِسَةٌ) وحق لها ذلك فهي عزيزة ، وإنما أهلها أصفياء ربك وخواصه من بريته يختصهم سبحانه وتعالى برحمتـه ، يختصـهم بفائض منته ، يختصهم بجزيل عطائه.

❁ خطورة الدعوى للمقامات والأحوال:

(وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيْهَا اليَوْمَ كَيْفَ تَرَى) والدعوى بلوى ، كيف تـرى كـل من قرأ شيئا من كلامهم أو ظهر بشـيء من مظاهرهم ادّعى أنـه صـاحب الذوق ، وصاحب التسـليك ، وصـاحب الدلالـة والـذي يَجِـبُ طاعتـه ، وادّعى دعاوي توصله إلى البلوى والعياذ بالله.

١– من قصيدة مطلعها :

أقوم بفرض العـامرية والنفـل   وأصدقها في القصد والقول والفعل

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ٣٩٨).

نقل الشيخ علي باراس[١] عليه رحمة الله عن الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي[٢] أنه كتب له بعض فقرائه ومريديه : إني بلغت رتبة القطبية ، فكتب إليه الشيخ يقول له:

واعلم أن من ادّعى مقاماً قد وصل إليه حبس فيه ولم يتجاوزه ، ومن ادّعاه قبل أن يصل إليه حُرِمَه ولم يُمَكّن من الوصول إليه ، فلا يصل إليه أبدا فانتبه لنفسك واترك الدعاوي .

إذا بدا لك شيءٌ أو ظهر لك شيءٌ من النور ظننت أنها هي الطريقة كلها ، وأين أنت؟ ودونك ودون ما يتجلى الحق على خواصه بالمعرفة الخاصة سبعون ألف حجاب ، ولا ينكشف حجاب منها إلا ظن المريد أنه وصل ، وكلما انكشف حجاب ظن أنه وصل ، فأين الوصول؟ الوصول هناك ، وإنما يكون الوصول بفائض جود الله تبارك وتعالى بجذبة يجذبك بها إليه ، فمنهم من تسبق الجذبة السلوك في شأنه ومنهم من يتقرب بالسلوك ويقيمه ثم تأخذه الجذبة ، فعندها يفنى عما سوى معبوده ، فما بقي في مشهوده إلا الله .

١- الشيخ علي بن عبدالله بن أحمد با راس: احد العلماء العاملين صاحب مجاهدات أخذ عن الحبيب عمر بن عبدالرحمن العطاس ، والحسين ابن الشيخ أبي بكر بن سالم والعلامة محمد بن سليمان باحويرث ، وأخذ عنه جملة من الناس منهم الحسين بن عمر العطاس والعارف عيسى بن محمد الحبشي وغيرهم ، له عدة مؤلفات معظمها في علم التصوف منها شرح للحكم العطائية وشرح قصيدة الإمام العدني (ما حسن يعشق غير حسن لبنى ..) وغيرها ، توفي رضي الله عنه في دوعن بقرية الخريبه سنة ١٠٩٤هـ

٢- الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي: هو الشيخ الصالح العارف بالله ، احمد بن عمر الزيلعي العقيلي الهاشمي يلقب بسلطان العارفين ، توفي ببندر اللحية سنة ٧٠٤هـ.

هبـــت نســـيمات الوصـــال   مـــن جانـــب القـــدس العـــلي

واســـــتغرقت أنوارهـــــا   عـــوالم القلـــب الخـــلي

عـــما ســـوى معبـــوده   الواحـــد الحـــق الـــولي

وكوشـــــــــفت أسراره   وحـــل في بـــرج الوصـــول

الله حســـــبي وكفـــــى   قـــل مـــا تشـــاء يـــا ذا الفضـــول[1]

وقال :

غـــير فتـــى أفنـــى المســـمّى وأفنـــى ســـائرَ الحُجُـــب

وساعدته من الرحمن بارقة سرى بها يقصد العليا مـن الرتـب[2]

وقال الشيخ أبوبكر بن سالم[3] :

بـــاب مـــا يدخلـــه واحـــد ســـوى بـــاذل الـــروح

أو مشـــمر ذبـــح نفســـه مـــع كـــل مـــذبوح

١- من قصيدة للإمام الحداد مطلعها : قل للذي قـد لامني   دعني وشأني يا عذول

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ٤٢٥)

٢- البيت للإمام علي بن محمد الحبشي من قصيدة مطلعها:

لولا وصال أحيبابي وقربهم ** أرجو لما طابَ لي أنسي ولا طربي

من ديوان الجوهر المكنون.

٣- هو الإمام الكبير والعلم المنير أبوبكر بن سالم بن عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن السقاف ، كان عالما له جاه واسع ولد في تريم عام ٩١٩هـ واستوطن مدينة عينات شرقي مدينة تريم وتوفي بها عام ٩٩٢هـ ، من مشائخه الإمام شهاب الدين أحمد بن عبدالرحمن و الشيخ عمر بامخرمه و الشيخ معروف با جمال وغيرهم وأما تلاميذه فعدد كثير منهم أولاده الكرام والشيخ أحمد الحبشي صاحب الشعب والشيخ عبدالرحمن الجفري صاحب تريس والشيخ يوسف بن عابد الحسني المغربي صاحب مريمة . له مؤلفات في علم التصوف مثل معراج الأرواح ورسالة مفتاح السرائر .أفرده كثير بالترجمة .(المشرع الروي)

وانطـــرح في حمـــى لـــيلى مـــع كـــل مطـــروح
شـــاهد البيـــت والأركـــان والســـر واللـــوح
والبصيرة تجلت وانعزل كل مقبوح[١]

وحال من يدّعيها اليوم كيف ترى؟ يقنع بالرسوم .. و يكتفـي بالمظـاهر ولا يغـوص عـلى سرهـا ولا يـدرك حقيقـةَ خبرِهـا ، وإنـما هـي موروثـة ومخصوصة ، كما قال سيدنا الإمام الحـداد في المعـاني التـي حملهـا رسـول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسـلم وبـرز منهـا مـا بـرز للعـالمين ولأمتـه وللمـؤمنين ، وخُـصَّ مـا خُـصَّ منهـا الأصـفياء مـن الصـحابة والتـابعين وتابعيهم بإحسان قال:

وفيـــــــه عليـــــــه الله صـــــــلى ودائـــــــع
مـــن الســـر لا تـــروى خـــلال الـــدفاتر
ولكنهـــــــا مكتومـــــــة ومصـــــــانة
لـــدى الأوليـــاء العـــارفين الأكـــابر
وموروثـــــــة مخصوصـــــــة بضـــــــنائن
لربـــك مـــن أهـــل التقـــى والســـرائر[٢]

١- من قصيدة له مطلعها : مرحبا يا سليمى يا دواء كل مجروح
ديوان الشيخ أبي بكر بن سالم ـ مخطوط
٢- من قصيدة للإمام الحداد مطلعها :
لك الخير حدثني بظبية عامر   وما حالها من بعدنا يا مسامري
ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ٢٦٤)

مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يعلمه إلا ربه :

ولما لاحت البارقة منها على أويس القرني خاطب كبار الصحابة وهم سيدنا عمر وسيدنا علي بقوله: ما عرفتما من رسول الله إلا الظل ، وقد برقت عليهما أعظم مما برقت عليه فقالا : نعم .. ما عرفنا منه إلا الظل ، ومن يعرف رسول الله إلا الله.. صلى الله عليه وآله وسلم .. لو كان في رتبته أحد لعرفه ، ولكن ليس في رتبته من الخلق أحد فمن يعرفه؟ إنما يعرفه ربه (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) وأعرف الناس به صحابته ا لكرام خصوصا أوائلهم والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، هم مِن أعرف الناس به ، ولكن قالوا ما عرفنا منه إلا الظل ، .. ظِلُّهُ الذي رأيناه فيه .. أما حقِيْقَتُهُ فرَبُّهُ أعلم بها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ..

أي آدمي من بشرٍ ولحمٍ يقف جبريل ويقول لا أستطيع أن أمشي معك ولا أن أعْلُوَ علوّك ، ولا أن أرتفع ارتفاعك ، ولا أن أطلع طلوعك ، ولا أن أدنو دنوّك ، ولا أن أقرب قربك ، ولا أن أنزل منزلتك ، إن تقدمتُ احترقتُ وأنت إن تقدمتَ اخترقتَ ، وما منّا إلا له مقامٌ معلومٌ ، أُذِنَ لك فاطلع يا محمد .. أيُّ بَشَرٍ هذا؟ أي آدميٍ هذا؟ أيّ لحمٍ ودمٍ هذا؟ أي روحٍ هذا؟ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

❁ طريقة سيدنا الفقيه المقدَّم[1] (الفقر):

فاحذر من الدعوى ، ولقد قالوا عن بعض الأكابر كسيدنا الفقيه المقدم: ارتقى المراقي العلية فكانت بدايته مثل النهاية من الأقران والأكابر العارفين ثم مرت حياته لم يَدَّعِ حالاً ولا مقاماً. ولا نسب إلى نفسه شيئاً من الرتب عليه رضوان الله .

ولما سُئِل ما هي طريقتك؟ قال : الفقر ، الفقر لأنه فقير إلى الله .. مفتقر إلى الله .. هذه طريقته .. في اليوم الواحد كان يأتي بمائةٍ وعشرين ألفاً من لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، غير أوراده من القرآن ، وغير تدريس الفقه الذي اتسع فيه ومن علوم الحديث ومن تدريس الناس وتعليمهم عليه رضوان الله تبارك وتعالى ، ومع ذلك كانت صدقته من خصوص التمر دون غيره كل يوم ألف رطل من التمر يتصدق به ، وكان أعزَّ الأقوات عندهم ، فكان إذا جذَّ التمرَ من النخل يخصص بعد إخراج الزكاة والصدقات الحاضرة ثلاثمائةٍ وستينَ زيراً . كل زيرٍ يسع ألفَ رطلٍ هذه لصدقات كل يوم ، غير ما يستعمله وما يقدمه لأضيافه وما يعطيه أرحامه وما ينفقه في الأمور الأخرى ، لكن هذه الثلاثمائة والستين زيرا على عدد أيام السنة كل يوم يُخرِج واحداً للمحتاجين وللفقراء .. هذه

---

١ – الفقيه المقدم : مقدم العلماء والفقهاء محمد بن علي بن محمد بن علي من سلالة المهاجر إلى الله احمد بن عيسى من ذرية الإمام الحسين بن علي بن طالب ، ولد بتريم٥٧٤هـ وتربى تربية صالحة كان عالما فاق أقرانه في العلوم العقلية والنقلية ولذا لقب بالفقيه المقدم ، له المجاهدات القوية ، وكانت له اليد الطولى في إخماد الفتن بكسره للسيف ونشر طريقة القوم الصوفية ، من مشايخه والده و الشيخ سعد الظفاري الشحري والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن با عبيد والقاضي احمد بن محمد با عيسى والإمام سالم بن بصري ومن تلاميذه أولاده الكرام والشيخ عبدالله بن إبراهيم باقشير والشيخ عبدالرحمن بن محمد با عباد والشيخ إبراهيم بن يحيى با فضل توفي بتريم سنة ٦٥٣هـ (من كتاب المشرع الروي) ، شرح العينية (ص ١٥٢ ـ ١٨٣) ، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ٣٠١).

الأموال ما شغلته عن ذي الجلال . ولا قطعته عن كثرة الذكر ، ولا عن سعة العلم ، و لا عن كثرة العبادة ، واليوم من تعلق بطرف في شركة أو بطرف في مؤسسة أو بطرف في وظيفة أو في وزارة لم يعد عنده وقت ليصلي الوتر أو الضحى ، ولم يهتم بالنوافل.. ولم يبالِ صلى الفرض جماعةً أو منفرداً .. ضياعٌ وإهمالٌ وإيثارٌ للأدنى على الأعلى ، وللسافلِ على الرافعِ ، وإيثارٌ للحقيرِ على الكبيرِ ، ولو صدقوا الله تبارك تعالى لم يشغلهم عن الله شاغل ، ولم يقطعهم عنه قاطع .. فالله ينظر إلينا و المسلمين ، ويعلِّق قلوبنا به ويملأنا بحبه ، ويجعلنا في أهل قربه في عافية ..



(١٥) مَتَـــــى أَرَاهُــــمْ وَأَنَّـــــى لِي بِـــــرُؤْيَتِهِمْ
أَوْ تَسْــــــمَعُ الأُذْنُ مِنِّـــــي عَـــــنْهُمُ خَـــــبَرَا

التعشّق الصادق لرؤية الصالحين والنظر إلى أنوار محياهم:

(مَتَى أَرَاهُمْ وَأَنَّى لِي بِرُؤْيَتِهِمْ) يقول: متى أراهم . والشيخ[1] من كبارهم في زمانه ومن أئمتهم في عصره وأوانه ، أوصل الله على يديه إليه مريدا بعد مريد حتى اشتهر الاثنا عشر الألف من الذين أُوصِلوا على يديه ، وأظهرهم الله تبارك وتعالى وحققهم بصفات العبودية ، وخلاّهم عن جميع صفات النفس والهوى والدعوى وتَسلُّط الشيطان ، على يد ذاك الشيخ ثم يقول متى أراهم؟ وهو يشير إلى عظيم الرؤيا.. وما تحصِّل.. وماذا تثمر؟ وإلى ماذا توصل؟ متى أراهم ..

> فإنه إذا لاح للعين سَناهم تعشّق القلب مغناهم ، وأدرك معناهم .. فصار حاله من حالهم ، وماؤه من مائهم ، فيصير مثلهم .. ويدخل مداخلهم ويحضر محاضرهم ، ومن حضر محاضرهم لمع له مِن سناء معاني الخصوصية وحقائق المزية ما يطوي عنه شهود البشرية ، وكل نقص ينحط عن الرتبة العلية

وذلك لا يحصل إلا لمن سبقتْ له سابقةُ الفضل مِن رب البرايا جلَّ جلاله ، وإلا ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: ١٩٨]

---

١ – يقصد الناظم .

وهؤلاء كثيرون .. يكون الأصـفياء بيـنهم والأوليـاء بـين أظهـرهم وأهـل حضرة الله سبحانه وتعالى يغدون ويمسون معهم ولكنهم لا يبصرون ..

(مَتَى أَرَاهُمْ) : فإنه إذا حقت الرؤيا تحقق نيل المزايا ، وتحركت السريرة لتكون من صافيات المرايا ، إذا وقعت العين على ذاك السناء تعشّقت ذلك المعنى ، وطلّقتْ كلَّ ما كان من الدون ، وما رَضِيَتْ بغير كأس الهناء مع المولى سبحانه وتعالى في المقام الأسنى ، لذا : له ذات لو نظر إليها الأعمى شفي من عماه ..

جارك ومَن جاورك يحيا ولو كان ميت[١]

متى أراهم؟ وهل هو يسيرٌ شأنُ رؤيـاهم؟ أو هـيّنٌ عـلى الله تعـالى أن يريهم عباده؟ إنما يُرِيهِم من أراد أن يُرِيَه وجهه الكريم ، لأنهم أهل حضرـته ، فمن لم يُرِد أن يَرَى وجهه الكريم لم يُرِهِ أوجه التكريم في كل كـريم عليـه ، ولا أوجه التفضيل في كل ذي منزلة لديه ، لأنه لا يريد أن يـراه ، ولا ينظـر إليه يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم ، ولو أراد أن ينظرَ لَلَفَت نظره إلى ذوي الشأن لديه ، وأهل المنزلة عنده والكرامة عليه سبحانه وتعالى.

(مَتَى أَرَاهُمْ وَأَنَّى لِي بِرُؤْيَتِهِمْ) كيف لي برؤيتهم وأنا صاحب التقصـير .. والعظم الكسير.. وصاحب الغفلة وصاحب الكسـل والعجـز .. هكـذا يشهد نفسه ، وأنّى لي برؤيتهم؟

١- من قصيدة للحبيب علي بن محمد الحبشي . الجوهر المكنون.

الحرص على معرفة أوصافهم وسماع أخبارهم:

قال الأمر أبعد من ذلك .. (أَوْ تَسْمَعُ الأُذْنُ مِنِّيْ عَنْهُمُ خَـبَرَا) .. فـإن حقيقة أخبارهم لا تسمعها إلا أُذُنُ بارٍّ بِهم ، وإلا أُذن من أُرِيدَ أن يقرب من حضراتهم ، ومهما نُشِر الثناء عنهم وذُكِرت أوصافهم تصاممت أسماع مـن لم تَسبِق له سابقة الفضل فكأنه لم يَسْمع شيئا ، لا يحركه ذلك الوَتَر ولا يزعجه ذلك الخبر ، ولا يوقفه على كريم المنظـر ، لأنـه لم يـدخل دائـرة مـن أبصر ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] حقـائقَ النـور فيـك ، وتجلّيَّ مولاك عليـك ، أمـا الـذين أبصرـوا فسـارعوا ولبّـوا وأنـابوا وقـدموا أرواحهم .. أما ترى كيف تسابقوا إلى فدائك بأرواحهم .. رجـالهم ونسـاؤهم صغارهم وكبارهم ، أما سمعتهم يقولون لك : ما تأخذ من أموالنا أحـب إلينـا مما تترك ، أما سمعتهم في ذلك الحال تنادي المـرأة فـيهم مـا فعـل رسـول الله؟ فيقال زوجك قُتِل تقول أحتسبه عند الله . فما فعل رسـول الله؟ فيقـال أخـوك قُتِل ، فتقول أحتسبه عند الله فـما فعـل رسـول الله؟ فيقـال أبـوك قُتِـل فتقـول أحتسبه عند الله . فما فعل رسول الله؟ اتركوا الأبوة واتركـوا الأخـوة واتركـوا الزوجية ائتوني بخبر خير البرية. فما فعل رسول الله؟ قالوا هو بخير كما تحبـين ، فقالت أرونيه.. (مَتَى أَرَاهُمْ وَأَنَّى لِي بِرُؤْيَتِهِمْ).. أرونيه حتـى أنظـر إليـه ، فلـما وقع النظر على الوجه الأغر قـــالت كلمتهـــا (كل مصيبة بعدك فهـي جلـل يا رسول الله)[1] ما دُمْتَ بيننا وبين أظهُرِنا صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آلـه وأصحابه وأهل حضرة اقترابه من أحبابه .

---

١ – قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَبِي عَوْنٍ ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّدٍ ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ مِنْ بَنِي دِينَارٍ ، وَقَدْ أُصِيبَ زَوْجُهَا وَأَخُوهَا وَأَبُوهَا مَعَ رَسُولِ الله =

(**مَتَى أَرَاهُمْ**): ولعمري من مرت حياته ولا تعشّقَ له لهذه الرؤيا فوجوههم عزيزةٌ في القيامة ، وجوههم عزيزةٌ يوم الطامة ، وجوههم عزيزةٌ في ظل العرش ، وجوههم عزيزةٌ على الحوض ، وجوههم عزيزةٌ تحت لواء الحمد يوم القيامة فكيف يراهم؟ وإنما من سَلّط الله على قلبه التعشق لرؤياهم ولمشاهدة محياهم فهو على ذلك يحرص ليلا ونهارا ويلهج بطلبه سرا وإجهارا فذلك علامة أنه يريد المريدُ أن يريه أوجه تلك العبيد ، السعيدة مع كل سعيد ، اللهم أرنا وجوههم في الدنيا و الآخرة .

(**مَتَى أَرَاهُمْ وَأَنَّى لِي بِرُؤْيَتِهِمْ *** أوتَسْمَعُ الأُذْنُ مِنِّيْ عَنْهُمُ خَبَرَا**)

وبذلك طاب لهم السماع في ذكر صفات أهل الارتفاع وأهل الاتساع وأهل الاطلاع ، فلما كان ذلك ارتفعوا واتسعوا واطلعوا .. لما تشنّفت أسماعهم بأخبار من طَلَع طلعوا ، ولما تشنفت أسماعهم بأخبار من ارتفَعَ ارتفعوا ، ولما تشنفت أسماعهم بصفات من اطّلعَ اطّلعوا ، (**أو تَسْمَعُ الأُذْنُ مِنِّيْ عَنْهُمُ خَبَرَا**) لذا وجدت خيار الأمة في شرق الأرض وغربها يعقدون مجالس السماع وفيها صفات أهل الارتفاع ، وفيها الخبر عن ذاك الشعاع ، وفيها معاني ما يدار من الكؤوس بلا نزاع بين أرباب تلك ا لمعاني الرِّفاع عليهم رضوان الله تبارك وتعالى.

= صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأُحُدٍ ، فَلَمَّا نُعُوا لَهَا ، قَالَتْ: فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالُوا: خَيْرًا يَا أُمَّ فُلَانٍ ، هُوَ بِحَمْدِ اللهَّ كَمَا تُحِبِّينَ ، قَالَتْ: أَرُونِيهِ حَتَّى أَنْظُرَ إلَيْهِ؟ قَالَ: فَأُشِيرَ لَهَا إلَيْهِ ، حَتَّى إذَا رَأَتْهُ قَالَتْ: كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ! تُرِيدُ صَغِيرَةً قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الْجَلَلُ: يَكُونُ مِنْ الْقَلِيلِ ، وَمِنْ الْكَثِيرِ ، وَهُوَ هَا هُنَا مِنْ الْقَلِيلِ.

السيرة النبوية لابن هشام الحميري ت٢١٣هـ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م.

وبداية من عصر المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي كان يقول لمنشد الشعر في أوصافه: قل وجبريل وميكائيل معك[١] ، و يقول: اللهم أيّده بروح القدس[٢] ، وما معه إلا أن يصف الحبيب ويمدحه ويثني عليه صلى الله عليه وسلم بما هو أهله فيُهيِّجُ الأرواح لتشتاق إلى سيد أهل الفلاح ، وتتروح تلك الأرواح فتَحِن ، وإذا حنّتْ وأنّتْ طَلَبَتْ وصَدَقَتْ في الطلب ، وإذا صحّ لها ذلك رحِمَها الرب ، وقرَّبها مع من قرّب جل جلاله ، فبذلك أصغى إلى الشعر وسَمِعَهُ ، وبذلك أخرج البردة يعطيها لكعب بن زهير عليه رضوان الله تبارك وتعالى و كان قبل ذِكْرِ هذه الأوصاف وتشنيف الآذان بسماع أخبار الثناء على أهلها مُهدَرَ الدّم ، يُحَقُّ أن يُقتَل .. فلما تشرّف جنانه ولسانه ببيان وصف أهل ذاك المجد وأهل ذاك المقام الشريف عند المولى سبحانه وتعالى تحوّل إلى مَكْسُوٍّ ببردة صاحب الإسراء والمعراج ، أخرجها له من فوق كتفه وظهره وأعطاه إياها ، عندما وصل إلى قوله:

إن الرسول لنورٌ يُستضاءُ به
مهندٌ من سيوف الهند مسلول[٣]

١- أخرجه البخاري ومسلم بلفظ «اهْجُهُمْ – أَوْ هَاجِهِمْ وجبريل معك»، ٤/ ١١٢/ ٣٢١٣، ٤/ ١٩٣٣/ ٢٤٨٦.

٢- أخرجه البخاري ومسلم، ١/ ٩٨/ ٤٥٣، ٤/ ١٩٣٣/ ٢٤٨٥.

٣- أخرجه الحاكم في كتاب سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ج ١ ص٤٧٣ من قصيدة للشاعر كعب بن زهير مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

قال صلى الله عليه وآله وسلم بل مِن سيوف الله ، فردَّ البيت:

إنّ الرسول لنورٌ يُستضاءُ به

مهندٌ مِن سيوف الله مسلول(١)

فقال خذ ، وكساه ببردته الشريفة وصار محلَّ الإكرام ومحلَّ ترقب الخواص من الكرام ، لما أُعِطي من ذلك الجناب الرفيع ، وما كانت وسيلته إلا هذا السماع للأوصاف والثناء بما يستحقه أهل تلك الحضرة العلية وأهل الملاطفة والألطاف .

(أو تَسْمَعُ الأُذْنُ مِنِّيْ عَنْهُمُ خَبَرَا).. ومهما نُشِرت أخبارهم فإن أهل صمم الباطن لا يسمعون ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣] وإنما يُسمِع من سبقت لهم سوابق الفضل .. اللهم اجعلنا منهم ..

وثَبّتَ ذلك الشيخ في أدبه فهو يقول:

١- المرجع السابق

(١٦) مَـــــنْ لي وَأَنَّـــــــى لِمِـــــثْلِي أَنْ يُـــــزَاحِمَهُمْ
عَـــــلَى مَـــــوَارِدَ لَمْ أُلْـــــفِ بِهَـــــا كَـــــدَرَا

❁ تواضع الشيخ شعيب أبي مدين وأدبه مع الصالحين:

(مَنْ لي وَأَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ).. مثلي أنا شعيب بن أبي مدين المغربي الأنصاري .. مثلي أنا يطلب الرؤيا لهؤلاء ؟ (مَنْ لي وَأَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ) .. أنا وأصحاب الأوصاف التي مثلي أقل من أن نطلب مرافقة هؤلاء والجلوس معهم في مجالس الصفاء والوفاء .. هكذا يشهد نفسه ولعله كان متربعا في مجالسَ من تلك المجالسِ مَكانَ الصدارةِ ومحل الإمارةِ ولكنه هكذا يشهد نفسه في أصل ذاته أنه لا يستحق شيئا من ذلك وإن أوتِيهُ .. وإن أُعطِيه .. فكان هذا قاعدةً في السلوك .. جميعُ أرباب الصدق والوصول لا يدّعون .. ويقرّون ويعترفون وينسبون لأنفسهم كلَّ تقصيرٍ وهمْ في غاية التشمير ، وإنما يشيرون إلى نعمةِ المحبةِ عليهم فقط كما فعل الشيخ بخلاف أهل الدعاوي والبلاوي ، فما شأنهم هذا المسلك ولا يَطِيبُ لهم هذا المدرك ، ولا ينهلون من هذا المنهل ولا يطعمون هذا العسل .

وهم كلما تذلَّلوا كذلك أعزهم المالك ، وكلما زاد لهم ذلكم التواضع رفعهم الرافع ، وكلما ازداد منهم ذلك الخضوع أُكرِموا بإضاءة الشموع ، وإذا بهم في زيادة لا يحدُّها حدٌّ ، ولا يَقِفُ عليها عدٌّ لعادٍ من الخلق على الأبد ، يقول:

(مَنْ لي وَأَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ ** عَلَى مَوَارِدَ لَمْ أُلْفِ بِهَا كَدَرَا): على موارد هنيئة طيبة صافية لمْ أُلْفِ : أيْ لم أجدْ .. لم أصادف .. لم أشاهد بها كدرا .. صفت عن الأكدار وعن جميع الأغيار .. فما هي إلا صفاء وما هي إلا نقاء .. وما هي إلا هُدى وما هي إلا عُلا .. وما هي إلا سماء .. وما هي إلا نورٌ وما هي إلا حبورٌ وما هي إلا حضورٌ .. وما هي إلا خيورٌ وما هي إلا أجورٌ وما هي إلا عطاءٌ موفورٌ ، وما هي إلا عنايةٌ وما هي إلا هدايةٌ وما هي إلا ولايةٌ .. وما هي إلا رعايةٌ وما هي إلا مَنْحٌ .. وما هي إلا فتْحٌ .. وما هي إلا نُجحٌ .. وما هي إلا قُربٌ .. وما هي إلا شُربٌ من أحلى شرب ، لَمْ أُلْفِ بِهَا كَدَرَا..

وهو في توجيهه للسالك كان يرسل المقال باطناً فيه معنى الذوق والحال ، فصار ما لحق ذلك من المقال بارزاً فيه معنى الأحوال ، فقد دعانا إلى سلوك الطريقة بمقاله وحاله الذي شرحه في هذا المقال الذي يكون فيه الحال بيّنا ظاهرا ، بعد أن أرسل إلينا المقال الذي يكون باطنه الحال مختفيا مستترا ، فبيّن عن بعض مظهر حاله وما يشهده وينظره ويراه باله ، فقال عن أولئك القوم :

مَتَى أَرَاهُمْ وَأَنَّى لِي بِرُؤْيَتِهِمْ
أَوْ تَسْمَعُ الأُذْنُ مِنِّي عَنْهُمُ خَبَرَا
مَنْ لي وَأَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ
عَلَى مَوَارِدَ لَمْ أُلْفِ بِهَا كَدَرَا

وعلّمنا بذلك أن نقوم على قدم الاعتراف ولو بلغنا رتبة هذا الشيخ في مقامه الشريف فيجب أن نكون كذلك ، فكيف وبيننا وبينه بونٌ بعيدٌ ومسافةٌ

شاسعةٌ ، ثم بعد هذا الاعتراف أكّد على الأصل الذي يقوم عليه الاغتراف من بحور الفضائل كلها .. وهو صدق المحبة ثم أخذ في البيت التالي يقول :

(١٧) أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيْهِمْ وُأُوْثِرُهُمْ

بِمُهْجَتِي وَخُصُوْصاً مِنْهُمُ نَفَرَا

❁ **المحبة مفتاح كل خير وسلّم كل رقي:**

(أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيْهِمْ وُأُوْثِرُهُمْ) أحبهم .. أنا عندي محبتهم .. ولعمري إنَّ ذلك لمقامٌ أسنى ، يدور عليه الشأن كله .. فو الله ما دخل تلك ا لمداخل إلا مُحِبٌ ، ولا اقترب مُقتربٌ إلا وهو محبٌ ، ولا اطّلع مطّلعٌ إلا بسرِّ المحبة ، ولا وصل واصلٌ إلا بسرِّ المحبة ، ولا شرب شاربٌ إلا وهو متمكن في المحبة ، ولا نظر ناظرٌ إلا وهو مفتوح البصيرة بنور المحبة وبسرِّ المحبة .

(أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيْهِمْ وُأُوْثِرُهُمْ) وفي كشفه عن هذا الحال تنبيه لأولي الألباب من أهل الفهم أن الشيخ ممن رسخت قدمه.

فإنه لا يتحقق بمحبتهم إلا من شرب من زلالهم ، وورد على مواردهم ، ولا تكمل المحبة لهم إلا لمن ذاق وصالهم ، وإن كانت بدايتها سابقة ، وهي مفتاح لترادف الخيرات اللاحقة ، ولكن محبة الصدق التي ليست مقالاً يقال ، ولا خواطرَ تخطر بالبال ، ولا متخيلٌ من الخيال ، حقائق الصدق في المحبة: أذواقٌ وأحوالٌ ، وامتلاءُ بالٍ بحقيقة الولاء والاتصال ، وقدمٌ ثابت على الاقتداء والامتثال ، ومشاعرُ تملأُ الفؤادَ بكل ما فيه من وادٍ ، من معاني الوداد .

فيثمر ذلك المداراة ببذل كل شيء من شؤون الدنيا وما فيها والنفس في سبيل المحبوب وفي رضاه ، ثم تصير في النهاية إيثارا .. يؤثِر به المحبوب على كل ما سواه ، ولذا قال (أُحِبُّهُمْ) : ومحبتي ليست دعوى بالمقال فإن واقع حالي أني أداريهم و أوثرهم بمهجتي .

.. أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيْهِمْ وُأُوْثِرُهُمْ .. فكل محبةٍ لا تُنتِجُ المداراة والإيثار فهي صورة وفكرٌ من الأفكار لا حقيقة لها في واقع الضمير وباطن البال وفي طي القلب مما يُخزَنُ من سرِّ ذلك النوال ، لأن المحبة موهوبة من قِبَلِ الحق يُسَلِّط القلب على حُبِّ ما يحب ومن يُحِب إذا أحب ذلك القلب ، وإذا أبغض ذلك القلب صَرَفَ حبّهُ إلى ما يَبغضْ وإلى من يَبغَض ، فيا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك.

أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيْهِمْ : يعني أترك حظوظي من أجلهم ، وأوثرهم بمهجتي وأقدّم لهم روحي . يقول خبيب :

ولســـــــت أبـــــالي حـــــين أقتـــــل مســـــلما
عـــــلى أي جنــــب كـــــان في الله مصـــــــرعي
وذلـــــــــك في ذات الإلـــــــــه وإن يشـــــــا
يبـــــارك عـــــلى أوصـــــال شـــــلو ممـــــزع[١]

فالتفت بعينه يعبِّر عما استكن في باطنه من حقيقة المحبة ، وقال يـا رب ليس في الوجوه التي أمامي من يبلغ عني السلام إلى نبيك فأبْلِغْ نبيك عنـي السلام ، واجْزِهِ عني بما أنت أهله .. قال ذلك عند تَهَيُّئِه لقطع رقبته و عنـد تهيئِه لقتله يقول أجْزِهِ خيرا .. إِنِّي ما وصلت إلى هذا المقام إلا بسبب بركته ، وأنا أحبه وأمنيتي أبلِّغُهُ السلام وأمامي وجوه أعدائه ولا أحد منهم يبلِّغه السلام فبلغه يا رب عني السلام ، فكان من أواخر ما نطق به سيدنا خبيـب ، ورسول الله في المدينة رفع رأسه يقول : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ثم أخذ يتكلم .. ولما التفت إلى الصـحابة ورجـع إلـيهم قـال : هـذا مَلَـكٌ يبلغني السلام عن خبيب ، أُخرِجَ خارج مكة اليوم وهم الآن يصلبونه وإنه لم يجد في القوم من يبلغ السلام ، فقال اللهم بلِّغ نبيك عني السلام[٢] ، فأنـا رددت عليه السلام عليه رضوان الله ..

ما الذي يخطر على قلب خبيب في تلك الساعة وهو مقبل على المـوت؟ يقول إني أدْرَكْتُ مقاماً ما أدْرَكْتُهُ إلا لما اتخذتُّ محمدا إماماً ، فلقـد أكرمنـي الله به إكراما ..أي إكرام هذا؟ أفي قَتْلٍ قتلوك؟ فكأنه يخاطبنا مجيبا: إن رأيتَم

١- للصحابي الجليل : خبيب بن عدي ، انظر سيرة ابن هشام (٢/ ١٧٣).

٢- المرجع السابق

القتل في نظركم شيئا من التعب أو الإهانة أو الصعوبة فقد أقمتُ في قلبي ميزانا أَزِنُ به الشؤون بمنظارٍ من خلق الكائنات في الظهور والبطون ، وإني أدركتُ أني في هذه الحالة صاحبَ رفعة وشرف وكرامة لها يتسابق الأكياس من خيار الناس ، ولا يفوز بها إلا القلائل من الأكياس . فعدّ ذلك نعمةً كما جاء الخبر عن ذاك الصحابي المحب عليه رحمة الله تبارك وتعالى عبد الله بن حرام وقد طعنه بعض الكفار برمح أنفذه من ظهره حتى نفذ من صدره ،فلما نفذ من صدره استلم الدم بيديه حتى امتلأ كفاه من دمه فنثره يمينا وشمالا وهو يقول: فُزْتُ وربِّ الكعبة[1] ، فزت و ربِّ الكعبة ، والكافر ماذا يقول ؟ فزت!! وتعجب الكافر من حاله ويقول في نفسه أنا قتلته وهو يقول فزت؟ من الذي فاز هو أم أنا؟ ثم بعد فترة من الزمن أسلم ذلك الرجل فلما دخل في الإسلام وعرف الحقيقة قال أنا كنت الخسران في ذلك اليوم وهو الذي فاز.

(وَخُصُوْصاً مِنْهُمُ نَفَرَا..) هم أبوابي ومفتاح بابي ورفعُ حجابي وسببُ بُلوغِ آرابي ، ووسيلتي إلى ربي ، وواسطتي للدخول على حِبِّي ، ظهر لي من بديع ما خصصهم به في حضرته من كريم نظرته ما أوجب أن أخصهم بمزيد المحبة ، وأن أجعلهم عندي أعلى الأحبة ، وخصوصا منهم نفرا .. أحبهم وأداريهم وأوثرهم بمهجتي .

وأصل ذلك حبّه عز وجل ، والأصل في حب الحق تعالى حبُّهُ لعبده، فحبُّ الله لعبده أصل كل ذلك ، فعلى قدر ما يحبُّكَ تعرِفُ طرفاً من محبته لك .. هذا هو الأصل .. وما مِن تَسَبُّبٍ إلا بما شرع لك من المجاهدة

١- دلائل النبوة للإمام البيهقي (٣/ ٣٤٤) والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٤٠)

وامتثال الأمر وكثرة الـذكر وحسْـن الفكـر (ولا يـزال عبـدي يتقـرب إلي بالنوافل بعد أداء الفرائض حتـى أحبـه)[١] فـإذا أظهـر العبـد تقربـه ألي بـما شرعته له أظْهِرت له ما سبق عندي له من المحبة ، وربطها سـبحانه وتعـالى باتباع الحبيب صـلى الله عليـه وسـلم فقـال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] وعنـد وجـود محبة الله تبارك وتعالى تجد كيف ينصرف الهوى إلى متابعة الهادي إلى السـواء ، الذي ما ضل وما غوى وما ينطق عن الهوى صلوات ربي وسلامه عليـه ، فحينئذ تتعشق النوافل والقربات ، وتُؤثِر دين الله بروحك ، بل يصل الأمـر إلى حد غريبٍ ، آثر الصحابة بعضهم البعض بأرواحهم ، وسـقيا مـاءٍ عنـد شدة الظمأ مع الإشراف على الموتِ .. آثر بها كلٌ من الثلاثة صاحبه الآخـر حتى مات قبل أن يشرب ، جاء إلى الثالث فوجده قد مات ورَجَع إلى الثـاني فوجده قد مات ورجع إلى الأول فوجده قـد مـات .. كـل مـنهم آثـر بهـذه الشربة أخاه .

وهكذا عَبّرت الشيخة سلطانة بنت علي الزبيدي[٢] عليها رحمة الله تعـالى عـمّا نازل قلبها من محبة الله ففاضـت حبـا لرسـول الله ، ففـاض مـودةً لأهـل بيتـه ،

١- أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه) باب التواضع، (٤/ ١٩٢/ ٦٥٠٢).

٢- الشيخة سلطانه : العارفة بالله الولية الطاهرة (رابعة حضرموت) سلطانه بنت علي بن يماني الزبيدي ، ولدت سنة ٧٨٠هـ ، تحكمت على الشيخ محمد بن عبدالله باعباد والشيخ عبدالرحمن السقاف ، كانت على قدر كبير من الولاية والعلم والصلاح ولها نظم قليل ، و كانت ممن يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم يقظة ، بنتْ رباطاً في قريتها الحوطة وزارها كثير من العلماء ، توفيت بحوطتها يوم الاثنين ١٧ من شهر صفر سنة ٨٤٧هـ وعمرها يزيد على التسعين رحمها الله تعالى (ادوار التاريخ الحضرمي) (٢/ ٣٠٨ - ٣١٠).

فتقول: لو كان في مصلحة أهل البيت بريُ لحمي لبريت لهم لحمي برْيـاً .. انظـر حبَّ الله أوصلها إلى أين مع آل بيت المصطفى ، بعد ما قـرأت ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] فكيف بمحبتها لمحمـد؟ فكيـف بمحبتهـا للرب جل جلاله وتعالى في علاه؟ وبذلك كَثُرَ رؤيتُها للنبي صلى الله عليـه وآلـه وصحبه وسلم واجتماعها به ، وبذلك كانت محل نظر من رجال الوادي العـارفين المقربين الأكابر في زمنها عليها رضوان الله تبارك وتعالى.

(أُحِـبُّهُمْ وَأُدَارِيْهِـمْ وَأُوْثِـرُهُمْ بِمُهْجَتِـي): والمهجـة هـي : الـروح وَخُصُوْصاً مِنْهُمْ نَفَرَا.. الأفراد والعصابة الأمجاد .. من أهل المراتب العلى :

و في هذه المعاني نظم للشيخ علي باراس يقول فيه:

مـــــن لي بـــــأني أنـــــادم ســـــادة شربـــــوا
مـــن خـــالص الـــود كأســـا في الوجـــود سرا

مَـــــن لي وأنـــــى لأمثـــــالي إذا قربـــــوا
مـــــنهم بنيـــــل المنـــــى والعـــــز والظفـــــرا

أحـــــبهم حـــــب مرتـــــاح فـــــما نســـــبوا
لجانـــــبٍ كنـــــتُ مـــــنهم فيـــــه مـــــؤتمرا

قـــــومٌ يـــــدارون بالإحســـــان كـــــم جلبـــــوا
بـــــه إلى الله مـــــن بـــــدوٍ ومـــــن حَضَـــــرَا[1]



١- الروضة الخضرا والدرة الزهرا وهي شرح للشيخ علي باراس على منظومة أبي مدين صـ١٠٨.

(١٨) قَـــوْمٌ كِـــرَامُ السَّـــجَايَا حَيْـــثُمَا جَلَسُـــوا يَبْقَـــى المكـــان عَـــلَى آثَـــارِهِمْ عَطِـــرَا

(قَوْمٌ كِرَامُ السَّجَايَا حَيْثُمَا جَلَسُوا) حيث ما جلسوا يتطيب المكان بالطيبين ، لأن طِيبَهم من طِيبِ الحق ، فهو يعبق حيث ما جلسوا وحيث ما نزلوا وحيث ما مشوا .. لذلك قال الحبيب علي الحبشي[١]

أحب طيبة ومن هم وسط طيبة يحلون

وأعشق القاع لي سادتي فيها يسيرون

حيث يسيرُ سادتي وأحبة قلبي أحب الأرض التي يمشون عليها ، قال سيدنا ثمامة بن أثال مخاطبا لرسول الله ما كان بلدٌ أبغضَ إليّ من بلدك فقد أصبح بلدك أحبَّ البلاد كلها إليّ ، بمجرد ما آمن عشق البقعة التي فيها رسول الله ، وفي حديث المعراج أمثلة على ذلك ، يقول جبريل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلِّ هنا عند الشجرة .. صلِّ في الطور حيث كلم الله موسى .. صلّ هنا ببيت لحم حيث ولد عيسى.. بل المكان الذي سيتشرف بأشرفهم وهو طيبةُ مرَّ به جبريل ووقف عنده ، ولم يكن النبي قد وصل إليه بجسده الظاهر إلا أيام صباه وهو ابن ست سنين حين أخذته أمه. حتى أنه لما جاء وقت الهجرة كان ينظر إلى الأماكن التي بَقِيَتْ في ذهنِهِ من أيام كان في ست سنين ، حينما جاء إلى هناك نظر إلى البئر التي تعلم فيها

١- هو العلامة الداعي إلى الله الحبيب المحبوب علي بن محمد بن حسين الحبشي ، من مواليد قرية قسم شرقي تريم عام ١٢٦٩ هـ تربى بأبيه مفتي مكة ، له رحلات لطلب العلم إلى تريم ومكة ، من شيوخه السيد أحمد زيني دحلان والإمام أبوبكر بن عبدالله العطاس ومحسن بن عبيدالله السقاف وغيرهم ، ثم أقام بمدينة سيئون وتصدر للعلم والدعوة إلى الله وأنشأ بها رباطه الشهير فأقبل عليه الطلبة من كل حدب وصوب ، وتخرج به العدد الكثير ، له مولد سمط الدرر ، وديوان شعر بعنوان الجوهر المكنون ، توفي بسيئون سنة ١٣٣٣هـ.

السباحة وهو في ذلك السن صلى الله عليه وسلم ، فلا زالت مرسومةً في ذهنه الأماكنُ التي كان فيها وهو مع أمه صلوات الله وسلامه عليه ، مرَّ الركب بذلك المكان ووقف يقول : هذا سيتطيَّبُ بك ، وسيتنوَّرُ بك ، فهو مكان مرفوعُ القدر عند الرحمن من الآن ، لأنك ستنزل فيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، إذا علمنا ذلك نعلم أنه لا خلاف بين الصحابة والتابعين وتابعيهم و جميع علماء الأمة على أن أفضل البقاع هي البقعة التي ضمت أعضاءه ، لأنه لا أطيب منه ولا أكرم على الله منه ، فما في الأماكن مكان كالذي ضم أشرف مكين ، وأمْكَنَ مِكينٍ عند رب العالمين ، هكذا يطيب بهم حتى الثرى ، لذلك كان الشيخ العلامة الحبيب أبوبكر بن شهاب[1] لما يذكر بلدة تريم ومن فيها من رجال حضرة الله الذي مضوا يقول:

بلد مقدسة العراص كثيرة الـ
بركات والخيرات للمتناول
دُبِغَت بأقدام الأكابر أرضها
فترابها طب السقيم الناحل
وسماؤها امتازت بكثرة صاعد الـ
أنوار من عمل التقى المتراسل[2]

١- هو العلامة أبوبكر بن عبدالرحمن بن محمد بن الشيخ شهاب الدين با علوي التريمي ولد بقرية حصن فلوقة من ضواحي مدينة تريم عام ١٢٦٢هـ ، تربى بأبيه ومن شيوخه الحبيب علي بن عبدالله بن شهاب والإمام عبدالرحمن بن محمد المشهور كان عالما أديبا وشاعرا مفلقا ، ألّف وصنّف بلغت مصنفاته الثلاثين ، وتوفي بحيدر أباد بالهند عام ١٣٤١هـ.

٢- للعلامة أبوبكر بن شهاب من قصيدة مطلعها: دع ذكر أيام الشباب الراحل * وحديث لابسة الحلى والعاطل ديوان ابن شهاب ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ الطبعة الثانية ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

فإذاً كان هذا الوصف للمكان.

وحينما مرّ بعض أولياء الله من أرباب البصائر وهو في طريقه إلى الحج فإذا ببيتٍ عليه نور زائد على البيوت الأخرى والرحمة فوقه صبّابة أكثر من البيوت التي حواليه ، فوقف يتعجب ، وهو يشهد بنور البصيرة .. وفي تلك اللحظة مرَّ واحدٌ من أهل البلدة وهو صاحبُ بصيرةٍ مثله. ورأى هذا واقفاً على البيت ينظر ، ردّ عليه السلام وسأله ، لم أنت واقف هنا؟ فقال لمن هذا البيت؟ فضحك.. وقال هذا البيت لواحد من أهل قريتنا لكن قبل سنوات مر الجنيدُ بن محمد وأقام في هذا البيت أسبوعاً ، فعرف سبب ذلك النور الزائد و تلك الرحمة النازلة.

قومٌ كرام السجايا حيثما جلسوا

يبقى المكان على آثارهم عطرا

فإذا كان الأمر كذلك فما تظن لو حلّوا بساحة قلبك ، سيتعطر .. سيتنور .. سيتطهر . قال الإمام الحداد :

ومَن هم في سرائر فؤادي قاطنون

بساحه تربُها من زكي المسك أعطر[1]

وقال أيضا:

يا سكوناً في السرائر من

سر سري لا من النظر

١- من قصيدة للإمام الحداد مطلعها:

ألا يا صاح يا صاح لا تجزع وتضجر وسلم للمقادير كي تحمد وتؤجر

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ٢٢٦).

يــــــا ســــــكونا بمهجتــــــي وفــــــؤادي
لا بغــــــور ولا بنجــــــد وكثــــــب
حــــــبكم وودادكــــــم حشــــــو قلبــــــي
مــــن قــــديم وقبـــــل مـــــاء وتــــرب
وإذا مــــــا ذكــــــرتكم طـــــاب عيــــــشي
واســــتراحت روحــــي بــــأنس وقــــرب[1]

وقال أيضا :

وأحســــن عـــيش لـــيس فيـــه وجـــودكم
وإن كـــان ملـــك الأرض فهـــو ذمـــيم
وكـــل سرور قـــد خـــلا عـــن وصـــالكم
فـــما هــــو إلا ترحـــة و غمـــوم[2]

وقال بعضهم :

وأنــت الــذي حبّبتنــا نجــداً وحــاجرا   إليّ وأوطـــاني بـــلاد ســـواهما
حللـــتَ بهـــذا حلـــةً ثـــم حلـــة   بـــذاك فطـــاب الواديـــان كلاهمـــا

وما أحسن الدنيا حيث تكون وإلى هذا المعنى أشار صلى الله عليه وآلـه وسلم لسادتنا الأنصار حين قال لهم: أَحَزِنْتُم على لُعَاعَةٍ تألَّفت بها قلـوب

١- من قصيدة للإمام الحداد مطلعها :

أنتــم أنتــم أحبــة قلبـي   ومرادي من الوجود وحسبي

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ٥٨).

٢- من قصيدة للإمام الحداد مطلعها :

هواكم بقلبي والفؤاد مقيم   وشوقي إليكم مقعد ومقيم

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ٤٧٦).

أقوام ووكلتكم لما أعلم من إيمانكم؟ ألا ترضون أن ينصرف الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فو الله لَمَاَ تنصرفون به خيرٌ مما ينصرفون به ، المحيا محياكم والممات مماتكم ، ولو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصارُ وادياً لسلكت وادي الأنصار ، و لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، فبكى الأنصار حتى أخضلت لحاهم بالدمع[1]. فعسى الله أن يطيب قلوبنا حتى تصلح للطِّيِّبين فيحلُّون فيها .

قَوْمٌ كِرَامُ السَّجَايَا حَيْثُمَا جَلَسُوا ** يَبْقَى المكان عَلَى آثَارِهِمْ عَطِرَا :

سجاياهم أوصافهم الكريمة ، كرام السجايا : أي صارت طباعهم : أي أخلاقهم وصفاتهم كريمة ، فليس عندهم من السجايا إلا ما كان كريماً ، ولا من الصفات إلا ما كان حسناً طيباً عظيماً.

(كِرَامُ السَّجَايَا حَيْثُمَا جَلَسُوا) ، أي في أي مكان جلسوا يبقى المكان على آثارهم عطرا ، تتعطر بهم المنازل وتتنور بهم الديار والمحافل ، لأنهم ورثة الذي قيل في وصفه: (فمِنْ نشر طيْبِهِ تعطَّرَتِ الطرق والمنازل وبِعَرِفِ ذِكْرِه تطيبت المجالس والمحافل ، فهو جامع الصفات الكمالية و مظهر صفات الكمال من أمته المحمدية ، والمنفرد في خَلْقِهِ وخُلُقِهِ بأشرف خصوصية[2] وهم مجاري توزع وتفرّع أخلاقه الكريمة النبوية .

---

١ – أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيره من الخمس ونحوه، (٢/ ٤٠٣/ ٣١٤٧).

٢ – من مولد سمط الدرر للحبيب علي بن محمد الحبشي

(١٩) يُهْـــدِي التَّصَـــوُّفُ مِـــنْ أَخْلاقِهِـــمْ طُرَفَـــاً

حُسْـــنُ التَـــآلُفِ مِـــنْهُمْ رَاقَنِـــي نَظَـــرَا

معنى التصوف وسِمات أربابه :

(يُهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْ أَخْلاقِهِمْ طُرَفاً): يهدي مسلكهم الذي سلكوه ، والعَلَمُ الذي به صاروا يُعرفون ويُوسمون ويُوصفون ويُميّزُون وهو التصوف ، الذي لا يقصدون به إلا كريم الأخلاق وشريف الصفات وموروث المسلك النبوي والهدي المحمدي ، فهو التصوف.. وفيه قال أئمتهم[١] (التصوف خُلُقٌ فمَن زاد عليك في الخُلُق فقد زاد عليك في التصوف). وإنما مرادهم أشرف الأخلاق وأجملها وأفضلها وأنبلها وأتمها وأكملها ما كان متصلا بأخلاق الأكمل والأجمل والأفضل والأعظم والأكرم محمد بن عبدِ الله المخاطَبِ من قبل الإله الكريم بخطاب التفضيل والتكريم في الذكر الحكيم بقول مولاه له ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]

نبي عظيمٌ خُلْقُـهُ الخُلُق الذي ❋ له عظَّمَ الرحمنُ في سيد الكتب[٢]

فهذه العظمة في تلك الأخلاق تفرقت فيمن أحبهم الخلاّق ، و لم يحظَ بتمام كمالها إلا المصطفى محمد ، وقُرْبُ الخلق منه بعد ذلك على قدر اتصافهم بهذه الأخلاق ، وقُربُهمْ منه فيها صلوات ربي وسلامه عليه.

---

١ – منهم الشيخ الكتاني كما في الرسالة القشيرية (٢/ ٣٩٧) وإحياء علوم الدين (٣/ ٥٢)

٢– من قصيدة للإمام الحداد مطلعها:

سلكنا الفيافي والقفار على النجب ❋ تجد بنا الأشواق لا حادي الركب

والبيت مكتوب في الحجرة الشريفة ، ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ٦٧)

قال لك : هذا التصوف ـ المسلك والخلق الكريم ـ يهدي إليك إذا جالستَهم أو رأيتَهم أو سمعتَهم من أخلاقهم الكريمة وشمائلهم الحسنة العجيبة العظيمة طُرَفاً: جمع طُرفَةٍ وهي ما يُستحسَن وما يُستلذ وما يُستطاب ، طُرْفَة الشيء جَيِّدُهُ وحسنهُ ، يُهدي إليك طُرَفاً: يعني محاسن ومحامد ومزايا تأخذها بواسطة الجلوس معهم: أي ينقدح فيك سناها ويقوم فيك بِناها ، ويتضح لك معناها ، حيث تجالس أهلها ، وحيث تنال منهم وصْلَها ، وحيث ينتقل منهم إليك فضْلها ، ويمطر عليك منهم وبْلها.

(**يُهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْ أَخْلاقِهِمْ طُرَفاً**) وإذا بها مهما جالستهم على المودة في الله والمحبة من أجل الله والولاء في الله تنقدح صفاتهم فيك وتظهر محاسنهم فتُعْلِيك ، وتنتقل منهم كريم سجاياهم فترفعك إلى أعلى معاليك ، ذلك فضل بارئك الذي ينشر الخير من هذا إلى هذا ، ويكرم هذا بهذا ، ويرفع هذا بهذا ، بحسب ما سبق في حكمته القديمة وأقداره العظيمة جل جلاله...

(**يُهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْ أَخْلاقِهِمْ طُرَفاً**) : من محاسنهم وشمائلهم ، طُرَفاً : محامدَ وفضائلَ ومحاسنَ جيدةً حسناء .. يهديها إليك فتنقدح فيك وإذا بوصفك يتقلب إلى ما هو أطيب وإلى ما هو أشرف وأرغب ، ولا تزالُ كذلك كلما أحسنت مجالستهم حَسُنَ بذرُ صفاتِهِمْ فيك ، وإذا كان الأمر كذلك راعاك الذي راعاهم وهو بارئهم وبارئك ، وحينئذ كما اصطفاهم يصطفيك ، وكما اجتباهم يجتبيك ، ولا أقل من أن يدخلك في كنف بركتهم ثم يحشرك في زمرتهم ، إن أحسنت تلك المجالسة وعرفت ما للقوم من

خصوصيات التوى بها نظرك عن شهودِ أو تخيُّلِ المعايب أو شهود البشريات ، فإنهم لا يزالون بشرا ينامون ويشربون ويأكلون ويمشون في الأسواق وأعراض البشرية تنازلهم و هو الحجاب الذي حُجِبت به القلوب المعرضة ممن بُعِث إليهم الأنبياء عن أن تشاهد خصائص النبوة والرسالة فيهم ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا ﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣] ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿ وَقَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلهم ﴾ في النصح ﴿ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ [إبراهيم: ١١] قال تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ ﴾ [إبراهيم: ١١] فلماذا تغمضون عيونكم عن مَنِّهِ ، نحن بشرٌ مثلكم نبأنا .. أرسلنا .. اختصنا .. شرَّفنا .. كرَّمنا .. مَنّ علينا ، لكن الله يمُنّ على من يشاء من عباده ، فلماذا تفتحون عيناً و تغمضون عيناً؟ افتحوا العينين ، هؤلاء بشرٌ ارتضاهم واصطفاهم ربُّ البشر ، وبذلك قال القائل وهو يصف خير البشر:

محمد بشرٌ لا كالبشر *** بل هو كالياقوت بين الحجر

(حتى برز في عالم الشهادة بشرا لا كالبشر ، ونورا حيّر الأفكار ظهوره وبهر)[1] .. صلوات ربي وسلامه عليه.

(يُهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْ أَخْلاقِهِمْ طُرَفاً): محاسن ومحامد تعْلَقُ فيك ثم تُبذِر ثم تَنْبُتُ ثم ترسخ وتقوى ..

(حُسْنُ التَآلُفِ مِنْهُمْ رَاقَنِي نَظَرَا) قوم ألفون مألوفون ، لأن بواطنهم مشحونة برحمة العباد لأجل رب العباد ، ما شهدوا فيهم إلا ما اختار لهم

١- من مولد سمط الدرر للحبيب علي بن محمد الحبشي .

بارئهم أن يشهدوه؛ مِن غَضِّ الطرف عن المعايـب والعثـرات وعـدم ذكـر المساوي والسيئات ، والحرص الشديد على رفعة الدرجات ، وعلى التقريب بينهم وبين مولاهم واستنقاذهم بالمآلفـة مـن حضـيض الغفلـة ، والبعـد إلى حضرات الذكر والقرب مِنْ حضرة الـرحمن جـل جلالـه ، فهـم يريـدون أن يتصيدوا الخلائق فاتبعوا بذلك حبيب الخالق ، المخاطب بقوله ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمـران: ١٥٩]
فـإذا تأمـل حـالهم أيُّ عاقـلٍ بعـينِ الإنصـاف وجـدهم تركـوا الرئاسـات والشهوات وما يتنازع عليـه أهـل الغفـلات وزهـدوا فيـه ، ثـم تواضـعوا وتذللوا وخشعوا ، ثم لم يطلبوا حقوقا لهم من أحد ، ولم يلتفتوا إلى واجـب لهم على صغير ولا على كبير ، وتفقدوا مـا يلـزمهم مـن الواجـب لأي شيء ولو لحيوان فقـاموا بـه وأدّوه ، كـل مـن راقـب ذلـك مـنهم مـن العقـلاء بالإنصاف هام في محبتهم وعَشِقَهم ، وعَشِقَ مسلكهم هذا كائناً مـن كـان ، ما دام عنده نظر بالعقل والإنصاف فإنه يرى قوماً قد تركوا حظوظ أنفسِهم وراءهم ، وقد عرفوا ما للنـاس وتركـوا شـهود مـالهم ، وأخـذوا يـؤدون الحقوق ولو للحيوان فضلا عن الإنسان ثم لا يرون لأنفسهم فضـلا ، ولا يرون لأنفسهم حظا ، ولا يرون لأنفسهم رِفْعَـةً ، ومـع ذلـك هـم شـديدو الحرصِ على نفع العباد ، وعلى تقريبهم من المولى ، وعلى إنقاذهم من أنـواع الفساد ، فمن رآهم في هذا الحـال لا يطلبـون بـذلك جاهـا ولا منزلـة ولا سلطةً ولا مالاً .. كيف لا تَهُبُّ آثار فِطرَتِه السليمة فتعْلَمَ أنهم أهل المراتـب العظيمة والشؤون الفخيمة ، كيف لا يحبهم فيألفهم ، فبمجـرد مـا يـألفهم يَصِلُونَهُ بالرب ، يقرّبونه إلى الرب ، ليُصلِحوا العِوَجَ الذي فيه فيما بينه وبين

باريه جل جلاله وتعالى في علاه ، والحق تبارك وتعالى رتّب إجراء ذلك على أيديهم بصورة أقوى مهما ألفهم الشخص وأقبل عليهم ، فكلما ألفهم وأحبهم مكّنهم الحق من أن يُقوِّمُوا عِوَجَه ، وأن يُعدِّلُوا مَائِلَه ، وأن يُثبِّتُوا قَدَمه على السبيل وينتزعوا منه الصفات السيئة الذميمة والأخلاق الهابطة السقيمة ، وأن يغرسوا فيه حسن الصفات وكريم السجيات ومحبوبات رب الأرض والسماوات ، وإذا به وهو في الإقبال عليهم في كل يوم يبدو غَرْسُ محبوبةٍ لله من الصفات في باطنه ، وإذا بمحبوبات الحق سبحانه وتعالى تنزل في ساحات أرضِ قلبه ، لتُغرَس وتُثمِرَ ما هو أحب وأطيب ، فيكون تحت نظر هذا الرب وعنايته سبحانه وتعالى ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ومن هذا الباب والمدخل كَسَبَ الصحابة كلَّ صفاتهم الصالحة وكل أخلاقهم الفاضلة ، و كسبوا كل معارفهم العلوية من هذا الباب وتأدبهم مع ذاك الجناب ، وتحليهم بالآداب ، وإقبالهم الكلي على حبيب الله ، فأملى عليهم فامتلأوا بأنوار الله وبأسرار الله تبارك وتعالى ، فكانوا نموذجا في الخلق لم يأت قبلهم في صحب الأنبياء مثلهم ، ولن يأتي بعدهم في الأمة مثلهم رضي الله تعالى عنهم لحسن استقبالهم لمقوّم خِلالِهم ، وساقيهم لذيذ زلالهم ، صلوات ربي وسلامه عليه.

يُهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْ أَخْلاقِهِمْ طُرَفاً ** حُسْنُ التَآلُفِ مِنْهُمْ رَاقَنِي نَظَرَا :

رأيت منظرا حسنا من قومٍ دفنوا حقوق أنفسهم تحتَ أرجلِهِم ، وتفقّدوا حقوق الحقّ والخلق و لو كانت حيواناتٍ أو جماداتٍ ، فرأيتُ منظرا ما أعجبه ، وما ألطفه وما أشرفه فراقني هذا النظر و هو يروق لكل ناظر من

أولي العبر ، ومن كلّ من صَفَتْ له الفِكر ، وكلِّ من تخلى عن ذلك التجريء والتعنت والكدر .. بحمد الله تبارك وتعالى جعـل العَلامَـةَ صـلى الله عليـه وآله وصحبه وسـلم (المـؤمن إلـف مـألوف ولا خـير فـيمن لا يـألف ولا يؤلف)[١] ، وخيار الناس من كان إلفاً مألوفاً ، إِلفٌ يألف الناس ويتـألفهم إلى الرب سبحانه وتعالى ويقرّبهم من المولى بحسـن الخلـق ، بحسـن الخلـق مألوف ، والمألوفون هم المشايخ الممتلئون بالرحمة على عباد الله تعالى ، تسمع بهم فيقع في القلب حبهم ، تمر تحت دارهم فتزداد لهم محبة ، تراهم فينبسـط فيك الشوق ، تسمع كلامهم فتزيد لك المحبة ، لأن بواطنهم صفت عن أن تقصد غير الله أو تريد غير الله ، فـإرادة غـير الله لا تربّيـك وتزكّيـك لتنـال منزلة ليست عندك ولا عند مـن سـواك مـن أهـل الأرض ولا مـن أهـل السماء.

سيدنا إبراهيم الخليل لما قام بالنصح وتجـرأ عليـه القـوم الـذين كَسَّرَ ـ آلهتهم و رموه في النار فتبدّى له جبريل قائلا له : ألك حاجة؟ فقال الخليل يا جبريل أما إليك فلا ، أنا خليله ، كيف أذهب إلى غيره؟ ولو كـان إنسـاناً على غير قَدَم الوفاء والتربية سيقول لـه: رجـاءً أمسـك بي .. خـذ بيـدي .. أبعدني من هذه النار .. ولكن سيدنا الخليل قال لجبريل أما إليك فلا . ـ أنـا بيني وبينه سرٌ انبسط لي في أمر التعلق به ، أأرجع مرة أخرى إلى مخلوق ولو كان جبريل!

١- أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده عن جابر بن عبدالله (١/ ١٠٨) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ١١٥)

إن أنت من الملائكة أو من الإنس ، من الأرض أو من السماء عندي سواء لأني اتصلت برب الأرض والسماء ، قال :إذاً فحاجتك إلى الله فاسأله. قال: يا جبريل : عِلمُه بحالي يغني عن سؤالي ـ أنا في حال بيني وبينه ،فقد كملتْ ثقتي به وحضوري معه ـ فلا أحتاج سؤالا في هذا الحال وفي هذا الموقف الذي أنا فيه قال تعالى ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فلما كانوا كذلك راق النظر لكل صافي الفكر منهم عندما ينظرهم ، وفي الحديث (مَن رآهُ بديهةً هابه ، ومَن خالطه أحبه)[1] كل من جالسه و خالطه أحبّهُ ، و لما قال الكفار وهم مجتمعون للتآمر عليه أخرِجُوه من مكة إلى أي بلد أخرى يبعدُ منكم ، قال إبليس وهو حاضر عندهم متصور بصورة الشيخ النجدي يقول لهم: لا. لا . ألا ترون حلاوة منطقه وحسن أخلاقه ، سيحبِّه الناس الذين تذهبون به إليهم و يتبعونه و يمشون معه ويقاتلونكم بعد ذلك.. فقالوا كلامك صحيح .. لأنه يأخذ القلوب بخُلُقِهِ الكريم .. ولكنهم مع ذلك في عناد .. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] هم يعرفون .. وقلوبهم من الداخل تعرف أنك أحق بالمحبة من أي مخلوق آخر ، ولكنهم يعاندون ويكابرون .

١- أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب المناقب، (٥/ ٥٩٩) برقم ٣٦٣٨.

(٢٠) هُـــمْ أَهْـــلُ وُدِّي وَأَحْبَـــابِي الـــذِّيْنَ هُـــمُ مِمَّـــنْ يَجُـــرُّ ذُيُـــوْلَ العِـــزِّ مُفْتَخِـــرَا

(هُمْ أَهْلُ وُدِّي وَأَحْبَابِي): أي أنا عرفت طريقتي ومبدئي ومرضاة ربي فأقمت أساس المودة لأهل حضرته ، لا أتخلى عن ذلك .. أُوالِي أولياءه وأُعادِي أعداءه حتى ألقاه .. هم أهل وُدِّي لأنني ربحت من هذا السوق فلا أتخلّى عنه وأنا أمدحه والربح فيه.

(هُمْ أَهْلُ وَدِّي وَأَحْبَابِي الذِّيْنَ هُـمُ ** مِمَّـنْ يَجُرُّ ذُيُـوْلَ العِـزِّ مُفْتَخِـرَا) بعبوديته لله.. وانكساره لله.. وخضوعه لله.. فهم مفتخرون بعبوديتهم ورقِّهم للرب وتذللهم بين يديه ، فنالوا العز الأكبر الفائض من حضرته بشاهد قول الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] .. فأعزهم الله تعالى به حيث تذللوا لعظمته ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

ويشير إلى معنى من ذلك شاعرهم وهو يقول:

وممـا زادني شرَفـاً وتيهـاً ... وكـدتُ بأخمصـي أطـأ الثريـا
دخـولي تحـتَ قولِـك يـا عبـادي ... وأنْ صـيّرتَ أحمـد لي نبيـا[1]

١- هذان البيتان تنسبان إلى الإمام القاضي : ((عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي)) المتوفى سنة ٥٤٤ هـ.
حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (١/ ٢٣٥)

صلى الله عليه وصحبه وآله وسلم ، ولـذلك لما رأت رابعـة العدويَّـة(١) بعض أئمة زمانها يمشي مثل المتبختر في حالة نازلته ودهتـه فكـان متبخـترا بأنه عبد ، وعادة الناس يشمئزون من أن يكونوا عبيدا ، لكنَّ الرجـل أدرك أنه عبدٌ فهو فرح بذلك.. فلما رأته قالت له: ما هذه المشـية التـي مـا تُعهَـد مِنك؟ قال أصبحت غلامه وعبده.. أَخَذَتْهُ الطربـة فمشـى في ذلـك الحـال الذي نازله فرحانا و طربانا بأنه عبدٌ لله جل جلاله وله العز والشرف لمّا أدرك مـن سر العبوديـة مـا أدرك.. وهـو المعنـى الـذي أشـار إليـه الـرَّحمن بقولـه ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] ولم يعرف أحدٌ العبودية للرب كـما عَرَفَها الحبيب الأقـرب صـلى الله عليـه وآلـه و صـحبه وسـلم ، قـال تعـالى ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] صلى الله وسـلم وبـارك عليـه وعـلى آلـه فأنعمْ بِهِ من عبد ، قال الله تعـالى في مـن يـدخل تحـت لوائـه في القيامـة مـن الأنبياء السابقين وهو سيدنا أيوب : ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ٣٠].

وهكذا يقول الإمام الحداد :

محبـــتهم دِينـــي وفـــرضي وســـنتي
وعـــروتي الـــوثقى وأفضـــل مـــا عنـــدي(٢)

١- رابعة العدوية: إحدى النساء الصالحات العابدات كانت من أهل البصرة وكانت على جانب كبير من العبادة والتتيم بحب الله ، انطق الله على لسانها الكثير من الحكم وكان سفيان الثوري رَحمَه الله تَعَالَى يسْأَلهَا عَن مسَائِل ويعتمد عَلَيْهَا ويرغب فِي موعظتها ودعائها.

٢- من قصيدة للإمام الحداد مطلعها :

أجود بدمعي والدموع على الخد ... شهود على الأشواق والحزن والوجد

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ١٥٦).

ولهذا لم يفرح الصحابة بشي ء بعد الإسلام كفرحهم بحديث المحبة (أنت مع من أحببت)[١] فهو أفضل ما عندهم .. عندهم الجهاد .. عندهم الصيام .. عندهم القيام .. عندهم الصدقات .. لكن أحسن ما عندهم عبروا عنه بقولهم : ما فرحنا بعد الإسلام بشيء فرحنا بهذا الحديث (المرء مع من أحب)[٢] (أنت مع من أحببت) لأدبهم مع الله .. لا يثقون بشيء من أعمالهم ولكن المحبة لا يشكّون فيها ، كان أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومن الماء البارد على الظمأ .. إذا ذكر سيدنا أنس هذا الحديث قال (وأنا أحب رسول الله وأبا بكر وعمر وأرجوا بحبي إياهم أن يحشرني الله معهم).

ولذلك حتى الشعراء في القرون الأولى أدركوا مما يَهِّبُ من أطياف الإيمان على الناس من قلوب أهل حق اليقين فأخذ الفرزدق يصف علي بن الحسين وهو إمام من أئمة أهل هذه الصفات والحضرة يقول:

مِن معشرٍ حبُّهم دينٌ وبغضُهُمُ
كفرٌ وقُربُهُم ملجَا ومعتصم

إن عُدَّ أهل التقى كانوا أئمتَهُم
أو قيل من خيرُ أهلِ الأرض قيل هم[٣]

١- أخرجه البخاري ، باب علامة حب الله عزوجل، (٤/ ١٢٣/ ٦١٧١).

٢ - أخرجه مسلم في صحيحه ، باب المرء مع من أحب، (١٤١٩/ ٢٦٤٠).

٣- البيت من قصيدة مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

ديوان الفرزدق ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ـ شرح وتقديم الأستاذ علي فاعور. ص ٥١٢.

فكل من يعرف الله يعرف السبق والأفضلية لهذا الإنسان .

مَـــــن يعـــــرف الله يعـــــرف أوَّلِيـــــــةَ ذا

فالـــدِّين مِـــن بيـــت هـــذا نالَـــهُ الأمـــم[١]

نحن هُدِينا إلى الرب من وسط هـذا البيـت ، مـن هـذا المنبـت وهـذا المغرس جاءنا وحيُ الله تبارك وتعالى وجاءنـا رسـوله المصـطفى صـلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

إذاً فالحقائق انتشرت حتى مع شـعراء القـوم في تلـك العصـور الأولى (خير القرون قرني ثم الـذين يلـونهم ثـم الـذين يلـونهم)[٢] فكانـت هـذه الحقائق معروفه لهم يتداولون الكـلام فيهـا ويعرفـون أن مـن عرفـه الحـق وأحبَّهُ أحبَّهُ البيتُ والحرمُ والأرضُ والسماءُ ولهذا لما سأل أهل الشام هشـام بن عبد الملك من هذا؟ فقال : لا أدري ، فأجاب الفرزدق :

هـــــذا الـــــذي تعـــــرفُ البطحـــــاء وطأتـــــه

والبيـــــــت يعرفـــــــه والحـــــــل والحـــــــرم

هـــــذا ابـــــن خـــــير عبـــــاد الله كلهـــــم

هـــذا التقـــــي النقـــــي الطـــــاهر العلـــــم

١- المرجع السابق

٢- أخرجه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين، باب من لا يفى بالنذر، (٤/ ٢٢٨/ ٦٦٩٥).

هـــــذا ابـــــن فاطمـــــةٍ إن كنـــــت جاهلـــــه

بجـــــــده أنبيـــــــاء الله قـــــــد ختمـــــــوا

إذا رأتـــــــه قـــــــريش قـــــــال قائلهـــــــا

إلى مكـــــــارم هـــــــذا ينتهـــــــي الكـــــــرم

ينمـــــى إلى ذروة العـــــز التـــــي قصـــــرت

عـــــن نيلهـــــا عـــــرب الإســـــلام والعجـــــم

مـــــا قـــــال لا قـــــط إلا في تشـــــهده

لـــــولا التشـــــهد كانـــــت لاؤه نعـــــم

يكـــــاد يمســـــكه عرفـــــان راحتـــــه

ركـــــن الحطـــــيم إذا مـــــا جـــــاء يســـــتلم

يغضـــــي حيـــــاء ويغضـــــى مـــــن مهابتـــــه

فـــــما يكلـــــم إلا حـــــين يبتســـــم

وهكذا أخذ يصفه ثم قال :

ولـــــيس قولـــــك مـــــن هـــــذا بضـــــائره

العـــــرب تعـــــرف مـــــن أنكـــــرت والعجـــــم[1]

١- المرجع السابق

فحَبَسهُ هذا الأمير فعلم بالقصة سيدنا علي زين العابدين و بعث إليه بعشرين ألفاً.. فقال إنما مدحتكم لله ولرسوله ، و لو قصدت الدراهم فهؤلاء أصحاب السلطة.. لكن قصدي الله ورسوله ، قال زين العابدين: وإنّا أهلُ بيتٍ إذا أخرجنا شيئا لا نعود فيه ، قال تعالى في وصف الرعيل الأول من أصحاب سيدنا محمد ومن تبعهم بإحسان ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

فالخير في الأمة مازالت المحبة في قلوبهم راسخة لله ورسوله وصحابته وأهل بيته و صلحاء الأمة ، وإذا تزعزعت فالإيمان كله متزعزعٌ والإسلام كله متزعزعٌ والحال كله متزعزعٌ ، ومهما رسخت هذه المحبة فجميع فتن الأرض بمختلف مظاهرها لن تصل إلى قلوب مُلئت بالمحبة .. الله يقوي لنا المحبة له ولرسوله.

يا الله بذرة من محبة الله
نفنى بها عن كل ما سوى الله
ولا نرى من بعدها سوى الله
الواحد المعبود رب الأرباب[1]

***

١- من قصيدة للإمام الحداد مطلعها:

يا صاح قلبي ما سلا ولا طاب ** من بعد ما فارق ربوع الأحباب

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ٨٩).

ســــقط الخـــــلاف وحرفـــــه مــــن لفظهــــم

فلهـــــــم بحـــــــرف الائـــــتلاف غـــــرام[1]

(هُمْ أَهْلُ وُدِّيْ وَأَحْبَابِي الَّذِّيْنَ هُمُ ** مِمَّنْ يَجُرُّ ذُيُوْلَ العِزِّ مُفْتَخِرَا) : قال إنّ الحق أكرمني بمعاينة الفرق بين الفريقين والبون الشاسع بـين المقـامين ، فاخترت لنفسي أهل حضرته وأرباب نظرتـه ومـن هـم في البريـة خـواص أحبّته ، فسلكت ذاك السبيل فكان حظي من الجليل جليلا، وسقاني في هذه المحبّة سلسبيلا .

(هُمْ أَهْلُ وُدِّيْ وَأَحْبَابِي الَّذِّيْنَ هُمُ ** مِمَّنْ يَجُرُّ ذُيُوْلَ العِزِّ مُفْتَخِرَا)

١- من قصيدة للشيخ أحمد بن علوان مطلعها :

نظر المحب إلى المحبِّ سلام   والصمت بين العارفين كلام

فلستُ أرى العز في عاصٍ وإن تَربّع على كراسي الظلم والطغيان وادّعى ما ليس له مما لا يليق بإنسان ، ولا من مَلَكَ الرِّقاب ثم خالف رب الأرباب ، لست أرى في شيءٍ منهم عزّا ولا في أحد منهم عزّا .. أنا عرفت العزّ أين هو؟ وعلمت السراب فلم يكن لي مقصدا ، فإني لا أجد فيه شرابا ، ولكنني قصدت الماء حيث فيه الحياة ، [وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ] {الأنبياء:٣٠} فآثرتُ من آثرهم ربي ولم أغتر بنظري القاصر في عقلي ولا شكّي ولا ريبي ، فإن الاغترار بذلك من جملة عيبي ، فتركت عيبي باللجأ إلى ربي فآثرت من آثرهم ربي ، وأحببت من أحبّهم ربي وواليت من والاهم ربّي وعظّمت من عظَّمهم ربي ، وأكرمت من أكرمهم ربي ، فأنا على بيّنة من ربي.

هؤلاء أهلُ العز ، لست أرى العز في جامعي الأموال .. لست أرى العز في المفتخرين بما يؤول إلى الزوال من اكتشافاتٍ أو اختراعاتٍ أو مُلْكِ أجهزةٍ أو قوّاتٍ مادياتٍ وقنابلَ ذريّاتٍ ، أنا عرفتُ الله أعزَّ من كلِّ ذلك.

فلم أعتقد العزة حيث وضع الذل حتى لا يذلني، فإن اعتقدت العزّ فيما جعله ذلا فقد أذلني ، ولكني عرفت من أعزّ فأعززت من أعزّ فأعزّني .. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وإن قياسات عبدالله بن أُبَي بن سلول قائمة عند كل جهول غفول ، ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] وهذا القياس الباطل أقام الله

مقابله ميزان الحق فقال ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨] فقام ولده عبدُ الله بن عبدِ الله بن أُبَي وحمل السيف ومنع والده من الدخول إلى المدينة حتى يأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فأدرك ذلك وأراد إبرازه إلى عالم الحس لمّا قَوِيَ اعتقاده وتمّ انقياده وصحّ وداده ، ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ [الأنعام: ٩٥] .. مؤمن قوي مِن صُلْبِ منافق ، فأُخْبِرَ رسول الله ... فصاح ابن أبي سلول أيها الناس ولدي يمنعني؟ ارفعوا الخبر إلى محمد .. فجاء الخبر إلى النبي فأرسل إليه وقال دع أباك يدخل . قال أَمَا وقد أَذِن رسول الله نعم فادخل امتثالا لأمر رسول الله. لكن انحنِ برأسك تحت السيف فأنت الأذل ورسول الله الأعز .... فما رضي أن يُرى في عالم الحس ما يخالف الميزان الثابت في نفسه والعدل القائم في رُوحِهِ والحق الواضح في سِرِّه ، كيف وهو تربية محمد ، ومن يجد شيخا كشيخهم ، ومن يجد مربياً كمربيهم ، فكل الذين سلّموا له الزمام صاروا أئمة الأنام عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

ولمّا كان الأمر كذلك توجّه الشيخ في خاتمة كلامه إلى الرحمن أن يديم اجتماعه بأهل هذه الحضرة ، فقد أيقن أن فُرقتهم هي العذاب ، وقد قَطَع يقينا بفؤاده أن التخلف عنهم هو الحرمان والانقطاع عن رب الأرباب ، فسأل الله أن يديم أسرار اجتماع الشمل بهم ليدوم شربه من شربهم ، وليَرِدَ

في العقبى مواردهم ، وليجلس معهم على موائدهم ، وليحضر معهم عند جامع محامدهم ، فقال :

(٢١) لا زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللهِ مُجْتَمِعاً
وَذَنْبُنَا فِيْهِ مَغْفُوراً وَمُغْتَفَرَا

(لا زَالَ شَمْلِي بِهِمْ): وهو ميلي بجميع لطائفي وأحاسيسي وكليتي وحسي ومعناي ..

(لا زَالَ شَمْلِي مُجْتَمِعاً) بهم في الله ومن أجل الله خالصا لوجه الله ، لا نقصد سواه ، ولا نعبد إلا إياه ، ولا نريد إلا هو ، ولا نطلب إلا رضاه ، قد تنزهنا وتطهرنا وتقدسنا عن الأغراض والمقاصد والإرادات لغيره كائنةً ما كانت ، اجتماعي بهم من نوع ما كان لله وفي الله وبالله خالصا لوجه الله ، وهذا الاجتماع الذي لا يتفرق أصحابه ولا يُحرِمهم الوَهْبَ وهّابُه جل جلاله. ومن سواهم فكل اجتماع لهم فتفريق ، وكل اتحادٍ لهم فتقطُّع ، ومآلهم أن يتقاطعوا ويتنازعوا حتى مع أقرب المقربين إليهم .. حتى مع أسماعهم وأبصارهم وجلودهم ، وهاهم يتخاصمون في النار مع جلودهم التي عاشوا وإياها ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] فتخاصموا حتى مع جلودهم ، لِمَ؟ لأنهم انقطعوا عن رب الكل ، وما تأدبوا مع إله الكل وخالق الكل ففُصِلُوا عن الكل والعياذ بالله ، ولا جمع إلا ما كان لله وبالله.

(لا زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللهِ مُجْتَمِعاً) من أجل ربي أعيش و أحيا قال سيدهم وإمام الحضرة فيهم (أسألك حبّك وحب من يحبّك)[1].

هو يسأل الله هذا السؤال .. فلا يأتي من يقول إنكم بالغتم في محبة هؤلاء الناس الطيبين والأخيار ، نقول له هذا إمام الحضرة يسأل من ربه أن يعطيه حبهم وتأتي أنت لتلومنا!! إمام الحضرة يسأل من الله أن يرزقه حبَّهم فتستكثر لهم حبّاً مني لا يساوي معشار عُشرِ ذرّةٍ من حبِّ محمد، (أسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك) فبيّن لنا مسلك ما يسمى بالحقيقة (أسألك حبك) وهذا المقصد والغاية ، ثم بيّن لنا ميزان المسلك في الطريقة قال (حب من يحبك) ثم ذكر لنا الباب للدخول فيه من الشريعة الغراء (وحب عمل يقرّبني إلى حبك) فلا بد منها كلها .. فعمل بمفرده من دون الذي قبله والذي قبله لا ينفع .. أولاً: محبة الله ومع محبة الله محبة من يحب الله، وبعد هذا ينفع العمل، (حب عمل يقربني إلى حبك) قال الإمام الحداد :

أنتم أَنتم أحبة قلبي
ومرادي من الوجود وحسبي
وإذا ما وجدتكم طاب عيشي
وتولى همي وغمي وكربي

١- حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ عن ثوبان، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، (١/ ٧٠٨/ ١٩٣٢)، المستدرك على الصحيحين، دار الحرمين، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

ويـــــرق لي الزمـــــان ويحيـــــا
كـــل ميـــت منـــي ويســـهل صـــعبي

وإذا مـــــــا ذكـــــــــرتكم سُرّ سري
واســـتراحت روحـــي بـــأنس وقـــرب

**

أنـــــتم مــــــرادي لا أبــــالي بعـــــدما
ترضـــوا عـــلي بمـــن أَحَـــب ومـــن شـــنا[١]

(لا زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللهِ مُجْتَمِعاً): فإنه الاجتماع العذب الصاف بلا تشويش ولا خلاف .. لله ومن أجل الله .. كما قالوا في جموع يجتمعونها في شعب النبي هود:

مـــا بهـــا قـــط مـــن واش ولا مـــن حســـود
بـــل أخيـــوان صـــدق طهـــروا عـــن جحـــود

قـــد صـــفوا واصـــطفوا لمـــا وفـــوا بـــالعهود
مـــن أهيـــل الـــولاء مـــن كـــل بـــرٍّ ودود

في معــــــاني صـــــفا وَرْدٍ وصـــــــافي ورود

١- من قصيدة مطلعها :

يا راحلا إن جئت وادي المنحنى فاحطط به وانزل على كنز الغنى

ديوان الإمام الحداد المسمى(الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ٥٢٨)

تحـــت ســـتر الليـــالي والـــورى في رقـــود

كـــم رقـــوا مـــن مراقـــي عاليـــات الصـــعود

في مثـــــاني قيـــــام أو مثنـــــى ســـــجود[١]

حـــيِّ تلـــك المجـــامع حـــيِّ تلـــك الوفـــود

حـــيِّ عيـــدٍ بهـــا فاقـــت عـــلى كـــل عيـــد[٢]

وفي اجتماع في أيام المولد وذكر سيرة المصطفى يقول عن مجتمعيه الحبيب علي الحبشي:

أهـــل الصـــفا والوفـــا مـــا فـــيهِمُ قـــط ضـــد

مـــا غـــير هـــذا يُمِـــدْ وآخـــر كـــذا يســـتمد

وحـــد وقـــف في الســـبب يســـعى وحـــد منجـــرد

وأسرار مـــولاي مـــا تحصـــى لمـــن بـــا يعـــد[٣]

١- الأبيات من قصيدة للإمام عبدالرحمن بلفقيه تذييلا على قصيدة الإمام الحداد التي مطلعها :

يا وجيه إنهـــا هبت رياح السعـــود   واومض البرق في الداجي من أقصى النجود

ديوان الإمام الحداد المسمى (الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ١٩٦).

٢- البيت من قصيدة للإمام الحداد مطلعها :

يا وجيه أنهـــا هبت رياح السعـــود   وأومض البرق في الداجي من أقصى النجود

ديوان الإمام الحداد المسمى (الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص ١٩٥).

٣- من قصيدة للحبيب علي الحبشي مطلعها :

موائد الخير مبسوطة لمن با يرد ** ذا شهر فيه النبي المختار طه ولد.

(وَذَنْبُنَا فِيْهِ مَغْفُوراً وَمُغْتَفرا): كل ما قصرنا فيه من حقوق الصحبة والمجالسة لهم وكل ما صدر منا من التقصير يدخل ما بين العفو فلا يُكتب ، وما بين الغفر فيُعفى ويُسامح فيه بعد الكتابة، ذنبنا فيه مغفورٌ من البداية مستورٌ تحت اسم العفو فلا يُكتَبُ أبدا . ومغتفراً بعد أن يُثبَتَ ويُكتَب تأتي المسامحة والصفح فيستر.. فلا يبقَى في صحيفة العبد الذي تكرّم الله عليه بالعفو والمغفرة إلا حسناته ، فتكون سيئاته قد تجلى الحق تعالى على الحفظة فنسوها ، وعلى الصحف فمُحِيت منها ، وعلى الأرض فنَسِيَتها ، وعلى الأعضاء فنسيتها ، فبقيت عنده هو فقط .. فإذا خاطب عبده هذا قال : عبدي أتذكر يوم كذا يوم فعلت كذا .. ولم تعد مكتوبة في الصحيفة .. ولكن الله لا ينسى .. ﴿فِي كِتَـٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] يقول : ربي ألم تعفُ عني؟ ألم تغفرْ لي؟ فيخافُ و يظنُّ أنه هلك .. قال : بلى سترتها عليك في الدنيا وأنا اليوم أغفرها لك ، فلم يدرِ بها أحد .. نَشَرتُ عليك كنفي حتى الملائكة ما سمعوا ما أقول لك ، قد أنسيتهم إياها فهذا الآن بيني وبينك. يعني ما أنت فيه من المزايا أُثبتْ على شهودها مني فليس لك فيها حقٌ أصلا ، لكن فضلي عليك .. احفظ هذا وإلا كم سيئاتك التي لو آخذتك بها لكان حالُك غير الحال! .. وشأنُك غير الشأن وكنت أين..

لكني نشرت رايات الفضل عليك وشفعتك في عبـادي وأكرمتـك بالمنـازل وسترت معايبك عن خلقي وأنا أدرى بك .

ثم إذا نظر الله نظَرَ رحمةٍ كبرى إلى عبد أبعَدَ عنه الذنوب قبل أن يقع فيها وقبل أن تنزل بساحته فلا تحل به ، فيحول بينه وبين السيئات وعندها يقال (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[1] كما قال لأهل بدر ، وأهل بدر ليس فيهم معصوم إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والباقون كلهم أناسٌ مؤمنون من خواص المؤمنين ولا أحد فيهم معصوم، (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) لا يحوم حولكم الذنب ، وهذه من أعلى معاني الغفران أن يحول بينه وبين الذنب من قبل وقوعه فيه فيبعدُ بعيداً . حتى أن بعض المحبوبين يقول له: يا ربي في الصحفِ ذنبُ كذا وذنبُ كذا على فلانٍ؟ فيقول حوّلته في النوم ، يراه في النوم ثم لا يكون منه شيء في اليقظة ، في الساعة التي أرفع عنه القلم في النوم يرى هذه الذنوب ولكن لا شيء يكتب قد عفوت عنه، ومن هنا تعلم قدر الصحابة الذين كرر الله فيهم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] هذا العفو من الله ، فإذا قال الله عفوت فماذا تقدر أن تفعل النار؟ المشكلة إذا لم يعفُ.. أما إذا عفا فلا يقدر

١- أخرجه البخاري في صحيحه عن سيدنا علي، باب لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، (٣/ ٣٠٦) برقم ٤٨٩٠

أحد .. لا سيدنا مالك خازن النار ولا ملائكة العذاب .. لا يقدرون أن يتحركوا بحركةٍ أمامَ أمره .. هو صاحب الأمر ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فالملائكة لا يقدرون على الكلام فكيف يأتي قليل الأدب يتكلم؟ والعفو منشورٌ لهم في القرآن لعلو قدرهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٥٥] .. استزهم ولكن لم يقدر أن يعمل بهم شيئا .. استزلهم وأصبح بعد ذلك خسراناً ولم يصل إلى غرضه .. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. ولذلك لما قالت السيدة عائشة أرأيت إن أدركتُ ليلة القدر فبمَ أدعُو؟ قال قولي: (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)[1]، وإذا نظر بالعفو إلى ماضيك أفلحتَ وبِتَّ والصحيفة غير الصحيفة ، عسى الله أن يكرمنا بهذا العفو.

١- أخرجه الترمذي في سننه عن عائشة رضي الله عنها، كتاب الدعوات، (٥/ ٥٣٤/ ٣٥١٣)، مطبعة مصطفى المهابي الحلبي وأولاده، تحقيق أحمد محمد شاكر ، وقال حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(وَذَنْبُنَا فِيْهِ مَغْفُوراً وَمُغْتَفرا): يا خير الغافرين اغفر لنا ما تقدم وما تأخر من ذنوبنا بأعظم الغفر وأوسعه يا غفور يا رحيم يا عفو واعف عنا يا خير من عفا .

ويختم الكلام بقوله لك : كلُّ مَا ذكرنا من لطائف الأحوال والمراتب العوال والذوق الزلال والمنح الغوال والمن والإفضال حصّله كل هؤلاء نتيجة لاتباع واحد : هو مولى بلال .. باهي الجمال .. سادن حضرة الجلال .. مفيض النوال .. محمود الخلال (محمد) .. ما أعجب اسمه (محمد) .. هذا اسمٌ أنا أنطقُه وأومنُ به ، من تفخيمه عند ربي على قوائم العرش مكتوب ، فعند ذكره تصير لي صلة بالعرش لأن الاسم منقوش على قوائم العرش .. ربطك الله بصاحبه وسقاك من مشاربه .

يقول لك : القوم الذين ذكرناهم من الواصلين والطالبين وأهل الحضرات والنظرات وجدوا كل هذا بالتبعية لهذا الإنسان ، فنختم كلامنا بالصلاة عليه أن يجزيه ربنا خيرا لأن هذا من رشْفِ بحره .. أدركوا كل هذه المعاني من رشف بحره ، فلو لم يتبعوه لَمَا أدركوا شيئا من هذا المعنى قط.



(٢٢) ثُــــمَّ الصَّـــــلاةُ عَــــلَى المُخْتَــــارِ سَــــيِّدِنَا
مُحَمَّـــــدٍ خَــــيْرِ مَـــــنْ وَفَّى وَمَـــــنْ نَـــــذَرَا

(ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى المُخْتَارِ سَيِّدِنَا).. المنتخب للرحمن من كل الكائنات .. وفي الحديث (إنّ الله اختار خلْقه فاختار منهم بني آدم ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب ثم اختار العرب فاختار منهم قريشا ثم اختار قريشا فاختار منهم بني هاشم ثم اختارني من بني هاشم فأنا خيار من خيار من خيار)[١] يكفيك قوله (وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله يوم القيامة ولا فخر)[٢] .

(ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى المُخْتَارِ سَيِّدِنَا) الذي لا يفوقه أحدٌ .. **محمدٌ** خير من وفّى ، قال الحق يمدح الخليل ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧] ولكن خير من وفّى هو محمد .. فهو سيد أهل الوفاء صلوات ربي وسلامه عليه ، قالت السيدة عائشة (إنه كان ليذبح الشاة فيقسمها في صويحبات خديجة)[٣] .

١- أخرجه الحاكم في المستدرك عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «لما خلق الله الخلق اختار العرب ثم اختار من العرب قريشا ثم اختار من قريش بني هاشم ثم اختارني من بني هاشم فأنا خيرة من خيرة » باب فضل كافة العرب، (٤/ ١٨٢) برقم ٧٠٧٥ .

٢- روى الدارميّ عن ابن عباس- رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أكرم الأوّلين والآخرين على الله ولا فخر» (١-٢٦) (كتاب سبل الهدى والرشاد ج١ ص٤٣٠)

٣- عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد).أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها، (٣/ ٤٧/ ٣٨١٨).

ولمّا جاءت هالةُ تستأذنُ أحس بمشابهة خديجة فاهتز وقال اللهم هالة.. فالتفتت السيدة عائشة وقالت ما تذكر من عجوز شمطاء قد أبدلك الله خيرا منها؟ قال لا والله ما أبدلني الله خيرا منها يا عائشة.. آمنت بي حين كفر بي الناس ، صدَّقتني حين كذَّبني الناس ، آوتني حين طردني الناس ، واستني بمالها ونفسها حين حرمني الناس فلا والله ما أبدلني الله خيرا منها[1] ، وهي من كانت تحكي هذه الأخبار عن المختار فيما يذكر في وفائِه ..

ويُذكر في السيرة أنه لما جاء في فتح مكة قالوا أين ننصب خيمتك يا رسول الله؟ أين تنزل؟ قال هل ترك لنا عقيلٌ من دار[2]؟ انصبوا لي خيمة أمام قبر خديجة .

١- عَنْ مَسْرُوقٍ ، عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثنى عليها ، فأحسن الثناء ، قالت: فغرت يوما ، فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق ، قد أبدلك الله عز وجل بها خيرا منها ، قال: " ما أبدلني الله عز وجل خيرا منها ، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء ". أخرجه أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق، (٤١/ ٣٥٦/ ٢٤٨٦٤)، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ خَلِيلٍ: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ ، عَنْ هِشَامٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ: استأذنت هالة بنت خويلد ، أخت خديجة ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك ، فقال: «اللهم هالة» . قالت: فغرت ، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر ، قد أبدلك الله خيرا منها " أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها، (٣/ ٤٧/ ٣٨٢١).

٢- في فتح مكة أنه قيل له صلى الله عليه وسلم «يا رسول الله تنزل في الدور؟ قال: هل ترك لنا عقيل من رباع أو دور» فإن هذا السياق يدل على أن عقيلا باع تلك الدار فلم يبق بيده ولا بيد أولاده بعده. إلا أن يقال المراد باع ما عدا هذه الدار التي هي مولده صلى الله عليه وسلم: أي لأنه كما سيأتي في الفتح باع دار أبيه أبي طالب ، لأنه وطالبا أخاه ورثا أبا طالب ، لأنهما كانا كافرين عند موت أبي طالب ، دون جعفر وعلي رضي الله تعالى عنهما =

و قال في أسارى بدر لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له[١] .. لماذا ؟ وفاءً .. حتى وهو كافر لكن له معروف يرده إليه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم فهو خير من أوفى بحقوق الحق والخلق ، والحق له على الخلق.

(مُحَمَّدٍ خَيْرِ مَنْ وَافَى وَمَنْ نَـذَرَا) قـال تعـالى ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ [الإنسان: ٧] صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن سار في دربه .

= فإنهما كانا مسلمين ، وعقيل أسلم بعد دون طالب ، فإن طالبا اختطفته الجن ولم يعلم به ، وإن عقيلا باع دار رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي دار خديجة: أي التي يقال لها مولد فاطمة رضي الله تعالى انظر: كتاب السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي، (١/ ٨٦)، دار المعرفة – بيروت.

١ – أخرجه البخاري ، باب ما مَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم على الأسارى (٤/ ٩١).

الفهرسة